SUSAN HILL

THE WOMAN IN BLACK

رواية

سوزان هيل

امرأة في ثوب أسود

ترجمة: السيد طه

دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

امرأة في ثوب أسود

رواية مترجمة..

الكاتبة: سوزان هيل.
ترجمة: السيد طه

عن الرواية..

جرائم قتل متتالية يرتكبها قاتل غامض.. يترك بجوار جثثه مجموعة قصصية قديمة مفتوحة على قصة تُمثّل تلك الجريمة..

أسئلة كثيرة ترفض العثور على إجابات لها.. وضابط مجتهد يُحاول أن يحافظ على وظيفته.. يستعين بصديقه الصحفي المشاغب في رحلة يسبحان فيها ضدّ التيّار في زمن لا يُحبّ من يسبح ضدّ تيّاره.. رحلة قد تُكلّفهما كلّ ما يملكان.. إلا أنهما لا يعرفان أن القدر يُخبئ لهما مفاجأة قد تقلب حياتهما فلا تعود كما كانت.. قدر قد وضع في طريقهما أقدم أعداء البشرية.. الخوف!

ميسرة الدندراوي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١)

ليلة عيد الميلاد

إنها ليلة عيد الميلاد. تشير الساعة إلى التاسعة والنصف مساءً. كنت أعبُر القاعة الطويلة عند مدخل منزل (مونكس بيس)، في طريقي من غرفة الطعام حيث انتهينا لتونا من الاستمتاع بأول وجبات فترة الأعياد السعيدة، متجهًا إلى غرفة استقبال الضيوف حيث المدفأة التي اجتمعت حولها عائلتي الآن، ثم توقفت للحظة، واتجهت إلى الباب الأمامي للمنزل، وفتحته كما أفعل عادةً في أوقات المساء، وخطوت خارجًا.

لطالما أحببت الخروج في الأمسيات، واستنشاق رائحة الهواء، لا يهم إن كان يُعبَّق بروائح طيبة، وعطور زهور منتصف الصيف، أو رائحة أوراق الخريف ورائحة النيران التي يشعلها المقيمون في مخيمات التنزه، أو رائحة برد الثلوج القارس. أحب أن أنظر من حولي، متطلعًا إلى الظلمة أمامي، ومتطلعًا إلى السماء فوق رأسي، لا فارق إن كان القمر موجودًا بها أو النجوم أو مجرد سواد حالك. أحب أن أستمع إلى نداءات الكائنات الليلية، وصرخات الرياح التي تهبّ وتتراجع، وكذلك أصوات ارتطام المطر بأشجار الحديقة، أستمتع بدفقات الهواء المتصاعدة باتجاهي في أعلى التل، قادمةً من المروج المنبسطة في أسفل وادي النهر.

استنشقت فور خروجي في تلك الليلة، فلاحظت أن تغييرًا قد طرأ على الطقس، وامتلأ قلبي بالخفة. كانت السماء تمطر طوال الأسبوع مطرًا باردًا، وخيَّم الضباب حول المنزل وعلى الريف بأكمله، فلم يكن ممكنًا الرؤية خارج النوافذ لأكثر من ذراع أو ذراعين في الحديقة. لقد كان طقسًا بشعًا ومظلمًا، ويبدو أن الشمس لم تُضِئ بالكامل أبدًا، فلم أجد أيَّ متعة في التجول، كما كانت الرؤية محدودةً للغاية لا تصلح للصيد، بالإضافة إلى إصابة الكلاب بالاكتئاب والتشوُّش قبل الأوان. في داخل البيت، أُضيئَتْ المصابيح طوال النهار، وتبللت حوائط المخزن والمبنى الملحق والقبو وفاحت منها رائحة الرطوبة، طقطقت نار المدفأة التي اشتعلت بصعوبة بالغة وتصاعد دخانها.

تتأثر روحي بتقلبات حالة الطقس، يحدث هذا دائمًا منذ سنوات طويلة وحتى الآن. لا بُدَّ أن أعترف أنه لولا أجواء الابتهاج والنشاط التي سيطرت على بقية المنزل، لأصابتني الكآبة والخمول، بالغم، إلى درجة لا أعود معها قادرًا على الاستمتاع بأنشطة الحياة المختلفة كما أحب أن أفعل. كانت سرعة تأثُّري بتلك التقلبات تزعجني، إلا أن الطقس القاسي حين تشعر «إزمي» بالبرد يدفعها إلى مواجهته بأنشطة مختلفة، ولذلك امتلأت تحضيرات عيد الميلاد لهذا العام بالتفاصيل وأصبحت أكثر نشاطًا من ذي قبل.

خطوت خطوتين أو أكثر بعيدًا عن ظِل المنزل حتى أتمكن من رؤية ما حولي في ضوء القمر. يقف منزل (مونكس بيس) على قمة قطعة أرض مرتفعة، تتصاعد

تدريجيًّا لأكثر من أربعمئة قدم فوق الوادي حيث يجري نهر (ني) الصغير. يتتبع ذلك النهر الصغير مسار الوادي المنحني من الشمال إلى الجنوب، في ذلك الجزء الخصب والمخفي من البلد. توجد في أسفل الوادي مروج، تتخللها تكتلات صغيرة من الأشجار ذات الأوراق العريضة، أما الأراضي الواقعة خلف المنزل، فطبيعتها مختلفة، ولم تكن سوى مساحة من الأحراش والشجيرات الجافة تمتد لبعض الأميال، قطعة من الحياة البرية في وسط هذا الريف المزروع بعناية. كنا على بعد ميلين فقط من قرية كبيرة إلى حدٍّ ما، وعلى بُعد سبعة أميال من المدينة الصغيرة حيث يوجد السوق الرئيسي، إلا أن المنطقة تمتلئ بجوٍّ من الوحدة والانعزال، وهو ما يجعلنا نشعر بأننا على طبيعتنا، كوننا بعيدين إلى حدٍّ ما عن الحضارة.

رأيت منزل (مونكس بيس) لأول مرة في أحد أيام الصيف، في وقت ما بعد الظهيرة، وكنت بصحبة السيد «بنتلي» في عربته التي يجرها حصان. كان السيد بنتلي مديري السابق، إلا أنني كنت قد أصبحت شريكه مؤخرًا في شركة المحاماة التي عملت بها منذ كنت شابًا صغيرًا -والتي ظللت، بالطبع، أعمل بها لما تبقى من حياتي المهنية-. كان السيد بنتلي في ذلك الوقت يقترب من السن الذي بدأ يشعر فيه بالميل تدريجيًّا إلى التخلي عن لجام المسؤولية، وينقله من يده إلى يدي، إلا أنه ظل يسافر إلى مقرِّنا في لندن مرة واحدة أسبوعيًا على الأقل حتى توفي في عمر الثانية والثمانين. على أي حالٍ، كان قد أصبح يفضِّل الإقامة في الريف، وعلى الرغم من أنه لم يكن رجل صيد إلا أنه غمر نفسه في دور مأمور الريف، ووكيل الكنيسة، ورئيس هذا المجلس، وتلك اللجنة، وهذا الجهاز في الدائرة. كنت قد ارتحت وملأتني السعادة حين أصبحت شريكًا كاملًا له بعد كل تلك السنوات، إلا أنني في نفس الوقت كنت أعتقد أن ذلك المنصب ليس إلا حقي، لأنني كنت قد قُمت بواجبي وأديت عملي مثل حمار مجتهد يحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية في إدارة الشركة، ولم يحصل على ما يناسب جهده، هكذا كنت أشعر، على الأقل بخصوص منصبي في الشركة.

هكذا إذن كانت الأمور حين جلست بجوار السيد «بنتلي» في مساء هذا السبت، مستمتعًا بالمشهد من فوق سياج عالٍ من شجيرات الزعرور تمتد عبر الريف الأخضر الناعس، وهكذا كانت حين تركَ حصانه الصغير يجر العربة ببطءٍ على طريق العودة إلى قصره القبيح إلى حدٍّ ما، والذي ألقى بظلاله على كل ما يحيط به. كان من النادر بالنسبة لي أن أجلس بلا عمل؛ ففي لندن، كنت أعيش من أجل عملي، ما عدا أوقات فراغ قليلة أقضيها في حجرة المكتب وفي جمع اللوحات المرسومة بالألوان المائية. كنت وقتها في الخامسة والثلاثين، وكان قد مَرَّ على وفاة زوجتي اثنا عشر عامًا. لم أكن أستسيغ المناسبات الاجتماعية، وعلى الرغم من صحتي الجيدة بشكلٍ عام، كنت عُرضةً للأمراض والحالات العصبية من حينٍ لآخر بسبب ما مررت به منَ أحداثٍ مروِّعة سوف أحكيها هنا. في الحقيقة، كنت أشيخ قبل أواني. كنت رجلًا قاتمًا باهتًا ومنهك الملامح - مثل كلب ممِلّ.

ألمحت إلى السيد بنتلي عن هدوء اليوم وجماله، فقال بعد أن ألقى عليَّ نظرة جانبية خاطفة: «يجب أن تفكر في شراء شيء ما في تلك المنطقة - لمَ لا؟ كوخ صغير

جميل - هنا، ربما؟» ثم أشار بسوطه إلى ضيعة صغيرة تقبع في أحد انحناءات النهر في الأسفل، لها حوائط بيضاء لامعة في ضوء شمس العصر. «اترك المدينة في بعض أيام الجمعة، ابدأ في التمشي، واملأ رئتيك بالهواء المنعش ومعدتك بالبيض والكريمة الطازجة».

كان لتلك الفكرة سحرها، ولكنها بدت بعيدة وليس لها علاقة واضحة بي، فابتسمت وتنفست رائحة الحشائش الدافئة وزهور الحقول. تأملت الغبار وهو يتصاعد على الطريق تحت حوافر الحصان ولم أفكر أكثر من ذلك في تلك الفكرة، إلى أن وصلنا إلى جزءٍ من الطريق يمتد أمام بيت حجري طويل متناسق تمامًا، يقف مرتفعًا ويطل على منظر مهيب فوق وادي النهر، ومن خلفه تمتد الأميال البعيدة المكسوة بألوان الأزرق والبنفسجي حتى خط التلال عند الأفق.

في تلك اللحظة، سيطر عليَّ شيءٌ ما لا أستطيع وصفه، شعور، أو رغبة - كلَّا، بل أمر أكبر من ذلك، معرفة، يقين بسيط، أمسك بتلابيبي، كان واضحًا تمامًا وصادمًا حتى صرخت بلا إرادة مني في السيد بنتلي ليتوقف، وقبل حتى أن يتمكن من إيقاف العربة تمامًا، قفزت من العربة التي يجرها الحصان إلى الطريق، ووقفت على تلة الحشائش الصغيرة متأملًا المنزل أولًا، يا لجماله!، وبالتناسقه الكامل مع الموقع الذي يحتله!، بيت متواضع ولكنه يحتل موقعه بثقة كأنه قصر، ثم تأملت الحقول الممتدة وراءه. لم يكن لدي أي شعور بأنني زرت هذا المكان من قبل، ولكن كان لدي اقتناع تام بأنني سوف أجيء هنا مرةً ثانيةً، وأن المنزل أصبح بالفعل منزلي، مرتبطٌ بي برباط غير مرئي.

على أحد جانبي المنزل، يجري مجرى مائي صغير بين الضفة والحقول الواقعة وراءه، ويتقدم المجرى في طريقه الملتوي باتجاه النهر في الأسفل.

كان السيد بنتلي ينظر إليَّ بفضولٍ الآن، من عربته التي يجرها الحصان. قال: «مكانٌ رائعٌ».

أومأت، وأدرت ظهري، لم أكن قادرًا على شَرح مشاعري العنيفة له. مشيت بضع أقدام أعلى التل حتى أتمكن من رؤية المدخل إلى ذلك البستان القديم المزدهر الذي يمتد خلف المنزل حتى يتلاشى في الحشائش الطويلة والأغصان المتشابكة الكثيفة عند نهايته. لمحت بعد نهاية البستان حدودَ أرضٍ مفتوحة، تبدو إلى حدٍّ ما جافة. كان الشعور بالاقتناع الذي وصفته من قبل، ما زال مسيطرًا عليَّ، أتذكر كيف أزعجني ذلك الشعور حينها؛ فأنا لستُ شخصًا واسع الخيال أو الأحلام، وبالتأكيد لم أكن معتادًا على استشراف المستقبل. كنت قد تعمدت تفادي أي تفكير في كل ما هو ليس ماديًا، منذ وقعت لي الأحداث التي أشرت إليها سابقًا، فتمسكت بالأمور الواقعية، الأمور المرئية والمحسوسة.

وعلى الرغم من ذلك، لم أتمكن من الهرب من تلك القناعة - كلا، لا بُدَّ أن أسميها بكلمة أكبر من ذلك؛ المعرفة اليقينية، أن ذلك المنزل سوف يصبح بيتي ذات يوم، عاجلًا أو آجلًا، رغم أنني لم أكن أعرف حينها بالتحديد متى سأصبح مالكه. حينما قبلت أخيرًا واعترفت بذلك الشعور في قرارة نفسي، امتلأت على الفور في تلك

اللحظة بإحساس عميق بالسلام والرضا، وهبطت عليَّ تلك الأحاسيس كما لم تهبط من قبل لسنواتٍ طويلة جدًّا، هكذا عُدت إلى العربة التي يجرها الحصان بقلبٍ تملؤه الخفة، فكان السيد بنتلي في انتظاري وقد انتابه فضولٌ ليس بقليل.

ظلَّ ذلك الشعور الجارف الذي شعرت به عند منزل (مونكس بيس) معي، ربما لم يحتل الصدارة أو يسيطر على تفكيري عندما تركت الريف ذلك العصر عائدًا إلى لندن، ولكني كنت قد طلبت من السيد بنتلي أن يخبرني على الفور إذا ما سمع بأن ذلك المنزل معروضٌ للبيع.

بعد بضع سنوات، اتصل بي السيد بنتلي كما طلبت منه. تواصلت مع وكيل العقارات في ذات اليوم، وبعد ساعات، دون حتى أن أذهب لرؤية المنزل مرة أخرى، قدمت عرضًا لشرائه، وقُبِلَ العرض. قبل تلك الأحداث بشهور، كنت قد قابلت «إزمي آينلي»، وكانت مشاعر أحدنا تجاه الآخر في تزايُد مستمر، ولكن لعنة طبيعتي المترددة في كل الأمور العاطفية والشخصية، التي كنت ما أزال مصابًا بها في ذلك الوقت، جعلتني أظلُّ صامتًا، لا أبوح بنواياي تجاه المستقبل. كان لدي شعور جيد حيال منزل (مونكس بيس)، فأخذت الأمر كنوع من الفأل الحسن، وبعد مرور أسبوع على شرائي للمنزل، سافرت بصحبة «إزمي» إلى الريف وطلبت منها الزواج وسط الأشجار في البستان القديم. قُبِلَ هذا العرض أيضًا، وبعدها بوقتٍ قصيرٍ، تزوجنا وانتقلنا للعيش في (مونكس بيس). في ذلك اليوم، كنت مقتنعًا بالفعل، بأنني أخيرًا قد تخلصت من الظل الطويل الذي ألقته أحداث الماضي على حياتي، كما أنني رأيت في وجه السيد «بنتلي» وفي الدفء الذي شعرت به في مصافحته، أنه مقتنع بذات الأمر أيضًا، بدا وكأنَّ حِملًا قد رُفعَ عن عاتقه هو. لطالما كان السيد «بنتلي» يلوم نفسه، ولو جزئيًّا، عما حدث لي - لقد كان هو مَن أرسلني في تلك الرحلة إلى (كريثن جيفورد) على أي حالٍ، إلى منزل (إيل مارش)، إلى جنازة السيدة درابلو.

إلا أن كل ذلك، كان أبعَد ما يكون عن تفكيري حينها، أو عن ذاكرتي على الأقل، حين وقفت أستنشق هواء الليل عند مدخل منزلي في ليلة عيد الميلاد تلك. كان (مونكس بيس) أسعد البيوت لمدة أربعة عشر عامًا الآن - بيت «إزمي» وبيتي، وبيت أطفالها الأربعة من زوجها السابق، الكابتن آينلي. في الأيام الأولى بعد شرائي للمنزل، لم أكن أجيء إلى هنا إلا في عطلات نهاية الأسبوع والأعياد، إلا أن عملي وحياتي في لندن، بدآ يزعجانني منذ اللحظة التي اشتريت فيها ذلك المنزل، وبدأت أشعر برغبة شديدة في الانتقال بشكل نهائي إلى الريف في أقرب فرصة.

والآن، اختارت عائلتي مجددًا أن تذهب إلى هذا المنزل السعيد من أجل قضاء عيد الميلاد. سأفتح بعد لحظات هذا الباب، فأسمع أصواتهم قادمةً من غرفة استقبال الضيوف - هذا لو لم تدعُني زوجتي فجأة إلى الدخول، قلقًا عليَّ من البرد. لقد كان الجو باردًا بالفعل، وصافيًا أخيرًا. كانت النجوم تتناثر في السماء، والقمر كُرَةٌ منحوتة من الثلج. لقد تسلل ضباب الأسبوع المنصرم ورطوبته مختفيين كاللصوص في الليل، ولمعت الطرق وحوائط المنزل الصخرية بشحوب، واستنشقت رئتاي دفقات الهواء.

في الطابق العلوي، نام أبناءُ إزوبل الثلاث - أحفاد إزمي - في غرفة العلية، بينما تتدلى جوارب عيد الميلاد المليئة بالحلوى بجوار أسِرَّتِهم، لن يكون هناك أيُّ تساقط للثلوج غدًا، ولكن على الأقل سوف يرتدي يوم عيد الميلاد حلةً مضيئةً ومبهجةً.

هناك شيءٌ ما في أجواء تلك الليلة، شيءٌ أظن أنه ذكرى من طفولتي، بالإضافة إلى ذلك الحماس الذي ملأني به هذان الطفلان، على الرغم من سني المتقدم، إلا أن تلك الأجواء ملأتني أيضًا بشعور غامض بأن سلامي النفسي على وشْكِ الانهيار، وأن الذكريات تستيقظ، الذكريات التي كنت أظنها قد ماتت منذ زمن، وبطبيعة الحال، لم أكن أعرف على وجه الدقة ما الذي يحدث داخلي. في تلك اللحظة، بدا لي من المستحيل، حتى لو عن طريق مجرد التذكُّر والأحلام، أن تتجدد صداقتي الحميمة مع الرعب والخوف الأبديين للأشباح.

ألقيت بنظرة أخيرة على الظلام المثلج، وتنهدت راضيًا، ثم ناديت على الكلاب وعدتُ إلى الداخل، لم أكن أتوقع شيئًا أكثر من تدخين غليوني وشُرب كأسٍ من الويسكي بجوار نار المدفأة في صُحبة عائلتي السعيدة. شعرت بينما أعبُر الصالة وأدخل غرفة استقبال الضيوف، بإحساسٍ جيدٍ يغمرني، وهو الإحساس الذي كان يجتاحني بانتظام أثناء حياتي في (مونكس بيس)، والذي يؤدي بشكل طبيعي إلى شعور آخر: شعور عميق بالامتنان. وبالفعل، تحرَّك لساني بالشكر لمرأى عائلتي، وهي تجتمع حول النار الكبيرة. كان أوليفر، أكبر أبناء إزمي، يزيد من اشتعال النار في لحظة دخولي، يضيف المزيد من خشب أشجار التفاح التي ملأنا بها البستان في الخريف الماضي، حتى صارت النار أعمدة مرتفعة ولهيبًا متقدًا. كان أوليفر -وما يزال-، يحمل شبهًا كبيرًا مع أخته إزوبل (تجلس بجوار زوجها، الملتحي أوبري بيرس)، ومع أخيه الأصغر، ويل، يمتلك ثلاثتهم وجوهًا إنجليزية جيدة، شاحبة ومنبسطة، تميل إلى الاستدارة، وشعرًا وحواجب ورموشًا بنية مثل الكستناء، وهو لون شعر والدتهم قبل أن تغزوه الخيوط الرمادية.

في ذلك الوقت، كانت إزوبل في الرابعة والعشرين من عمرها فقط، لديها ثلاثة أبناء صغار، ولديها النية على إنجاب المزيد. كانت تمتلك سمات الأمومة المستقرة والجياشة، وتمتلك ميلًا إلى الإشراف والتوجيه، تمارسه على زوجها وأخويها، بالإضافة إلى أطفالها. لقد كانت أكثر البنات مسؤوليةً وعقلانيةً، لديها شغف وسِحرٌ خاصٌّ، ويبدو أنها وجدت في أوبري بيرس، الهادئ ومتزن المشاعر، شريكًا مثاليًا لها. وعلى الرغم من ذلك، كنت في بعض الأحيان ألاحظ أن إزمي تنظر إلى إزوبل بأسى، كما أنها عبَّرت لي بلطف شديد ذات مرة، عن رغبتها في أن تصبح إزوبل أقل رزانةً، وأكثر اندفاعًا، أو حتى تهورًا.

لم أكن لأتمنى ذلك مطلقًا، بأمانة شديدة. لم أكن لأتمنى لهذا البحر الهادئ والمستقر أن يعكره أي شيء.

أوليفر، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، وأخوه ويل، الذي يصغره بأربعة عشر شهرًا، شخصيتان جادتان مثل أختهما، شابان متزنان، إلا أنهما في تلك الأثناء، كانا يستمتعان بوجود الجراء الصغيرة. بدا لي أن أوليفر لم يُظهر إلا علامات قليلة على

النضج المتوقع من شاب في أولى سنوات الجامعة في كامبريدج، شاب واعد بإمكانه الالتحاق بنقابة المحامين، إذا أخذ بنصيحتي. تمدَّد ويل على بطنه أمام المدفأة، وجهه يلمع، ويستند بذقنه إلى كفه. وجلس أوليفر قريبًا من أخيه، ومن حين لآخر، يبدآن في رفس أحدهما الآخر بأرجلهما الطويلة، ركلات ودفعات، تصحبها ضحكات عالية، كما لو أنهما قد عادا إلى سن العاشرة.

جلس أصغر أبناء آل آينلي، إدموند، بعيدًا قليلًا، عازلًا نفسه عن الآخرين كما يفضِّل، ليس لأنه طفلٌ غير ودود أو ذو مزاج سيء، ولكن بسبب طبيعته الدقيقة والمتحفظة، ورغبةً منه في أن يكون شخصًا له خصوصية، وهي الصفات التي كانت تميزه عن بقية عائلة إزمي، كما أن ملامحه لم تكن تشبه الآخرين؛ فقد كانت بشرته شاحبة، وأنفه طويل، وشعره أسود فاحم، وعيناه زرقاوان. كان إدموند آنذاكٍ في الخامسة عشرة، ولم أكن أعرفه بشكلٍ جيدٍ، أو أفهمه على الإطلاق، كما كان وجوده يُشعِرني بعدم الارتياح، إلا أنني كنت أحبه بعمقٍ على نحوٍ غريبٍ، ربما أكثر من الآخرين جميعًا.

غرفة استقبال الضيوف في (مونكس بيس) طويلة ومنخفضة السقف، على جانبيها نوافذ طويلة، وعلى الرغم من أن الستائر منسدلة الآن، إلا أن كمية كبيرة من الضوء تدخل نهارًا من الجانبين الشمالي والجنوبي. في تلك الليلة كانت تتدلى فوق المدفأة حزم وأكاليل من نباتات طازجة، أوراق التوت المغزولة في شرائط أرجوانية وذهبية، جمعتها إزمي وإزوبل عصرًا. وفي طرف الغرفة البعيد، وقفت الشجرة، مزيَّنةً ومضاءةً بأنوار الشموع، وتقبع تحتها أكوام الهدايا. توجد زهور أيضًا في الغرفة، مزهريات مملوءة بزهور الأقحوان. وفي منتصف الغرفة على طاولة مستديرة، هرَمٌ من الفواكه المجففة وإناء من البرتقال المخلوط بالقرنفل الذي ملأ الجو برائحته النفاذة، فاختلطت بروائح الأغصان وخشب المدفأة، لتتشكَّل رائحة عيد الميلاد.

جلست على الكرسي الخاص بي، وسحبته قليلًا مبتعدًا عن ألسنة لهب المدفأة اللامعة، ثم بدأت عملية إشعال الغليون، المطوَّلة والمهدِّئة، وبينما أفعل ذلك، بدأتُ أُدرك أنني قد قاطعت حوارًا حيويًّا في منتصفه، وأن أوليفر وويل على الأقل يتململان رغبةً في استكماله.

قلت من وراء دخان الأنفاس الأولى الحذرة: «حسنًا، ما هذا كله؟»

استمر التوقف القصير للحوار، وهزت إزمي رأسها وهي تبتسم بينما تتابع الحياكة التي تقوم بها.

«هيَّا...»

ثم قام أوليفر وبدأ في التجول حول الغرفة، يطفئ المصابيح كلها بسرعة، ما عدا الأضواء على شجرة عيد الميلاد في ركن الغرفة البعيد. وهكذا، حين عاد إلى مقعده، لم يكن هناك سوى ضوء المدفأة المباشر لنرى بعضنا الآخر، فاضطرت إزمي أن تضع جانبًا حياكتها - ليس بدون أن تُصدِر عنها همهمة اعتراض.

قال أوليفر وهو يشعر بالرضا: «على الأقل يمكننا القيام بالأمر بشكل لائق».

«أوه، يا لكم من أولاد...»

«هيَّا يا ويل، إنه دورك، أليس كذلك؟»

«كلا، بل دور إدموند».

قال الابن الأصغر في عائلة آينلي، بصوتٍ عميقٍ وغريبٍ: «آه... ها، بإمكاني أن، ربما أقوم بـ!»

قالت إزوبل وكأنها تتحدث مع أطفال أصغر سنًّا بكثيرٍ: «هل لا بُدَّ أن نطفئ كلَّ المصابيح؟»

«نعم يا أختي، لا بُدَّ، هذا إذا كنتِ تريدين الحصول على الأجواء الحقيقية».

«ولكني لستُ متأكدة، هل أريد ذلك؟»

أصدر أوليفر آهة منخفضة: «فليلعب أحدكم إذًا، أي أحدٍ».

مالت إزمي ناحيتي: «إنهم يحكون قصص أشباح».

قال ويل: «نعم، إنها أنسب شيء لليلة عيد الميلاد، إنها تقليد قديم!» كان صوته غير منتظم وتملؤه الحماسة والضحك.

تأوَّه أوليفر مجددًا: «البيت الريفي المنعزل، والضيوف يجلسون في دائرة حول المدفأة في غرفة مظلمة، والريح تعوي عند خشب النافذة...»

ثم جاء صوت أوبري بنبرته الجافة، رائقة المزاج: «من الأفضل أن نستمر»، وهكذا عادوا، أوليفر وإدموند وويل، يتنافسون فيما بينهم من يحكي الحكاية الأكثر رعبًا، الأكثر هزًا للأعصاب، ويملؤنها بالتأثيرات الدرامية والصراخات المخيفة. تبارَى كلٌ منهم مع الآخر، وزاد كلٌ منهم على الآخر بأقصى درجات الابتكار، فتراكم الهلع على الهلع، حكوا عن صخور تتساقط من قلاع مهجورة، وعن خرائب أديرة تغطيها أشجار اللبلاب تحت ضوء القمر، وعن حجرات داخلية مغلقة وزنازين سرية، أقبية تملؤها الجثث ومقابر شاسعة، سلالم تطقطق تحت وقْع خطواتٍ، وأصابع تنقر على النوافذ، صراخ وعويل وأزيز، واحتكاك واصطكاك السلاسل الحديدية، رهبان متخفون في أوشحة الرأس، وفرسان بلا رؤوس، دوامات ضباب ورياح مفاجئة، أطياف واهية وكائنات ملفوفة في أقمشة، مصاصو دماء ومستذئبون وخفافيش وفئران وعناكب. حكوا عن رجال يظهرون فجأة عند الفجر، ونساء يبيض شعرهن ويهذين بالجنون، وعن جثث تختفي ولعنات تتوارثها الأجيال. صارت الحكايات تزداد بشاعةً أكثر وأكثر، وتصبح أكثر جموحًا وسذاجةً، ثم سرعان ما صارت الشهقات والصرخات تختلط بنوبات الضحك كلما شارك أحدهم، حتى إزوبل اللطيفة، بإضافة تفاصيل أكثر رعبًا.

في البداية، كنت متساهلًا وأشعر بالتسلية، ولكن مع مرور الوقت وأنا أجلس مستمعًا في ضوء المدفأة، بدأت أشعر بالانفصال عنهم جميعًا، كأني غريبٌ عن

دائرتهم، كنت أحاول كتم عدم ارتياحي المتزايد، وكبح جماح فيضان الذكريات المرتفع.

لقد كانت مجرد لعبة غير مؤذية، في جوٍّ رائقٍ، بين شباب صغار يحيون عادةً قديمةً من عادات موسم الأعياد، كما قال ويل وكان مُحِقًّا، وليس فيها ما قد يُعذِّبني أو يزعجني، ليس فيها شيءٌ أرفضه. لم أرد أن أكون قاتل البهجة، كبير السن الممل الذي لا يمتلك خيالًا، ورغبت في المشاركة في تلك اللعبة التي لم تكن سوى تسلية جيدة، ولكني صارعت في حربٍ طاحنة داخلي، وتحوَّلَ رأسي بعيدًا عن نار المدفأة كي لا يتمكن أحدُهم من رؤية تعبيرات وجهي الذي أعرف أن علامات الارتباك بدأت تظهر عليه.

ثم، مع آخر عويل مشؤوم من إدموند، سقطَتْ جمرة ملتهبة، من قمة كومة الأخشاب المشتعلة في المدفأة، فجأة، وبعد أن نثرت شررًا مضيئًا ورمادًا، انطفأت، وحلَّ شِبهُ ظلامٍ كاملٍ، ثم حلَّ الصمت في الغرفة. ارتجفتُ. أردت أن أقوم وأشعل كل المصَّابيح مرةً أخرى، لكي أرى أضواء ولمعان ألوان زينة عيد الميلاد، وأردت أن أزيد من تراقُص ألسنة نار المدفأة المبهج، وأن أدفع بالقشعريرة التي ملأتني وبشعور الخوف في صدري، بعيدًا؛ إلا أنني لم أتمكن من الحركة، لقد شلني الخوف للحظةٍ، كما يفعل دومًا، لقد كان ذلك شعورًا مألوفًا للغاية، كنت قد نسيتُه منذ زمنٍ.

قال إدموند بعد ذلك: «الآن، هيَّا يا زوج أمي، إنه دورك»، وعلى الفور ردَّد الآخرون نداءه، وانكسر الصمت تحت وطأة حثِّهم لي، الذي شارك فيه الجميع حتى إزمي.

حاولتُ أن أتكلم هازلًا: «كلا، كلا، ليس لدي شيءٌ».

«أوه، آرثر...»

«لا بُدَّ أنك تعرف على الأقل حكاية أشباح واحدة، هيَّا يا زوج أمي، فالجميع يعرف على الأقل واحدة...»

آه، نعم، نعم بالطبع. طوال الوقت الذي قضيته مستمعًا إلى ابتكاراتهم البشعة الوحشية، وإلى صراخاتهم وعويلهم، كانت الفكرة الوحيدة التي تشغل عقلي والشيء الوحيد الذي كان يمكنني قوله هو: «لا، لا، ليس لدى أي منكم أدنى فكرة، ما تقولونه ليس سوى أوهام تافهة، الأمر ليس كما تحكون، لا شيء فيما تحكون يجمِّد الدم في العروق، يرعب، بل هي حكايات مثيرة للضحك. الحقيقة مختلفة جدًّا، الحقيقة مرعبة أكثر بكثير».

«هيَّا يا زوج أمي».

«لا تكن رجلًا ثقيل الظل».

«آرثر؟»

«أحكِ يا زوج أمي، بالتأكيد لن تخذلنا جميعًا».

وقفت، لم أعُدْ قادرًا على تحمُّل الوضع أكثر من ذلك.

قلت: «أنا آسف لأني أخذلكم، ولكن ليس لدي حكاية لأرويها!» ثم خرجتُ مسرعًا من الغرفة، ومن المنزل كله.

بعد خمس عشرة دقيقة، عدت إلى رشدي، ووجدت نفسي عند بداية الأحراش خلف البستان، دقات قلبي متسارعة، وأنفاسي لاهثة، لقد سرتُ كلَّ تلك المسافة في حالة هياج، والآن، أدرك أنَّ عليَّ أن أبذل جهدًا كبيرًا كي أهدِّئ من روعي، فجلست على صخرة تغطيها الطحالب، وبدأت في التقاط أنفاسي بتركيز وثبات، شهيق، أعِدُّ إلى عشرة، ثم زفير، حتى شعرت بالتوتر داخلي يتراجع، وبنبضات قلبي تنتظم، وبتفكيري يتضح. بعد برهة، أصبح بإمكاني إدراك محيطي مرة أخرى، فلاحظت صفاء السماء ولمعان النجوم وبرودة الهواء، وشعرت بهشاشة الحشائش المثلجة تحت قدمي.

كنت أدرك أنني بالتأكيد تركت العائلة خلفي في المنزل في حالة فزع ودهشة؛ فهم يعرفون أنني شخص معتدل المزاج ويمكن التنبؤ بمشاعري بشكل طبيعي. لماذا أثاروا حفيظتي بحكاياتهم السخيفة تلك، ودفعوني إلى التصرف على هذا النحو الفظ؟، مِن المؤكد أن العائلة بأكملها الآن في حيرة مما حدثَ، ولا بُدَّ أن أعود قريبًا إليهم كي أطلب مسامحتهم، وأحاول أن أخفف من وقْع الحادثة، وأعيد بعضًا من أجواء البهجة. ما لن أستطيع فعله هو أن أشرح لهم السبب. كلا، سأكون مبتهجًا وسأحافظ على اتزاني حتى لو من أجل زوجتي العزيزة فقط، وليس من أجل أي شخص آخر.

لقد اتهموني بأنني قاتلٌ للبهجة، وحاولوا إثارة حماستي لكي أحكي لهم قصة الأشباح الوحيدة على الأقل، التي لا بُدَّ أنني أعرفها ككل الرجال الآخرين. كانوا محقِّين. نعم، لديَّ قصة، قصة حقيقية، قصة مطاردة وشر، خوف وارتباك، رعب ومأساة، ولكنها لم تكن قصة للحكي من أجل التسلية حول المدفأة في ليلة عيد الميلاد.

لقد كنت أعرف في قلبي دائمًا أن تلك التجربة لن تتركني أبدًا، فهي منسوجة داخل خلاياي الآن وجزء لا خلاص منه من ماضيَّ، وكنت أطمح ألا أضطر إلى تذكُّرها مرةً أخرى أبدًا، ليس بشكلٍ واعٍ على الأقل وليس بتفاصيلها، ولكنها ظلت كجرح قديم، يؤلمني بشكلٍ خفيفٍ من حينٍ لآخر، ومع مرور الوقت، خفَّ الألم، وقلت وتيرته، وكلما مرت السنوات، تأكدت سعادتي واتزاني وتوازني، حتى صارت تلك التجربة في الآونة الأخيرة مثل ترقرق المياه الخافت على صفحة بحيرة، مجرد ذكرى هزيلة عن ذكرى.

الآن، الليلة، عادت مرةً أخرى لتملأ عقلي، حتى طردت منه كل شيءٍ آخر. كنت أعرف أنني لن أحصل على الراحة تلك الليلة، وأنني سأرقد مستيقظًا، مرتجفًا، غارقًا في العرق، أعيد في ذاكرتي تلك الأوقات، تلك الأحداث، تلك الأماكن. هكذا كنت أقضي الليالي، ليلة بعد ليلة لسنوات طويلة.

قمت وبدأت في المشي مجددًا. عيد الميلاد غدًا. أليس باستطاعتي أن أتحرر منها أثناء هذا الوقت المبارَك، ألا توجد طريقة لإبقاء الذكرى وتأثيرها عليَّ بعيدًا، ألا يوجد مُسكِّن أو بلسم يأخذ من حدة الألم الذي تُسبِّبه الجراح، ولو حتى مؤقتًا؟ ثم تذكرت بعد ذلك بينما أقف بين جذوع أشجار الفاكهة الفضية تحت ضوء القمر، أن الطريقة الوحيدة للتخلص من شبحٍ قديم لا يتوقف عن المطاردة، هي طقوس طرد الأشباح. حسنٌ إذًا، لا بُدَّ من طردِ شبحي، لا بُدَّ أن أحكي حكايتي، ليس بصوت مسموعٍ بجوار المدفأة، ليس كتسلية لمستمعين كُسَالى - إنها قصة أكثر مهابةً وواقعيةً من ذلك. لا بُدَّ أن أكتبها إذًا، على الورق، بكل عناية، بكل التفاصيل. سأكتب قصة الأشباح الخاصة بي. حينها، ربما، سأتخلص منها، وأتمكن من الاستمتاع بما تبقى من حياتي.

قررت أن تلك الحكاية ستكون لي وحدي، على الأقل حتى وفاتي، فأنا الشخص الذي طاردَتْه الأشباح، الشخص الذي عانى - لم أكن الوحيد، لا، ولكن بكلِ تأكيد، الوحيد الذي ما يزال على قيد الحياة. لقد كنت الشخصِ الوحيد الذي تأثَّر بتلك التجربة على نحوٍ عميقٍ، كما بدا الليلة من تهيُّجي، لا بُدَّ إذًا أن أكون الشخص الذي يخرج منه الشبح.

نظرت إلى القمر سريعًا، وإلى نجم الشمال اللامع. إنها ليلة عيد الميلاد. ثم صليت صلاةً بسيطةً وعميقةً من أجل سلامٍ نَفسيٍّ، من أجل القوة والثبات لكي أحتمل استكمال تلك المهمة الأكثر ألمًا، وصلَّيت من أجل مباركة عائلتي، ومن أجل الراحة لنا جميعًا في تلك الليلة. وعلى الرغم من أنني أتحكم في مشاعري الآن، إلا أنني جزعت من ساعات الظلام التي تمتد أمامي.

تذكرت على الفور سطورًا من الشعر، كاستجابة لصلواتي، سطورًا كنت أحفظها في السابق ولكني كنت قد نسيتها منذ زمن. ألقيت السطور لاحقًا على إزمي، فتمكنت على الفور من تحديد مصدرها.

«يقول البعض إنه حين يأتي هذا الموسم

الذي يحتفل فيه الناس بميلاد مخلِّصنا،

يغني طيرُ الفجر طيلة الليل.

يقولون، لا تجرؤ حينها أيُّ روح على الطواف،

وتصبح الليالي صافيةً، لا شهب تسقط،

لا جن يؤذي، لا ساحرة تقوى على السحر،

مباركٌ هذا الوقت ومِلؤه الرحمة».

حلَّ عليَّ سلام هائل بينما أتلو هذه السطور بصوت مرتفع، وعُدت إلى نفسي مرةً أخرى، إلا أنه ما يزال بداخليِ بعض التيبُّس من قراري. بعد هذا العيد، حين تكون عائلتي كلها قد رحلت، ولم يبقَ غيري مع إزمي، سوف أبدأ في كتابة قصتي.

حين عدتَ إلى المنزل، كان إزوبل وأوبري قد صعدا إلى الطابق العلوي ليتقاسما متعة التسلل وهما يحملان جوارب عيد الميلاد المنتفخة بالحلوى من أجل ابنيهما، وكان إدموند يقرأ، وأوليفر وويل في غرفة الألعاب في الناحية البعيدة من المنزل حيث توجد طاولة بلياردو بالية، وكانت إزمي تعيد ترتيب حجرة استقبال الضيوف استعدادًا للذهاب إلى النوم. أما فيما يخص الحادثة التي وقعت الليلة، فلم تقل إزمي شيئًا، على الرغم من تعبير القلق على وجهها، كان لا بُدَّ أن أختلق قصةً عن نوبة عُسر هضم أصابتني، لكي أبرِّر تصرفي الفج. أطفأت نار المدفأة، ونفضت غليوني من التبغ دًاخل مجمرة المدفأة، كنت أشعر بالهدوء والاطمئنان مجددًا، ولم أعد مضطربًا بسبب الرعب الذي قد يتوجب عليَّ احتماله وحدي، أثناء نومي وصحوي في الساعات القليلة القادمة من تلك الليلة.

الغد عيد الميلاد، كنت أتطلع إليه بحماس وسعادة؛ لأنه سيكون وقت البهجة العائلية واللهو والحب والصداقة، وقت المرح والضحك.

وبعد أن ينتهي الغد، سيكون لديّ عمل يجب القيام به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

حدث استثنائي في لندن

كان عصر يوم اثنين في نوفمبر، وكان الظلام قد بدأ يحل بالفعل، ليس لأن الوقت متأخر؛ فقد كانت الساعة في حدود الثالثة عصرًا، ولكن بسبب الضباب الكثيف. أحاطت بنا هذه السحابة السوداء من الضباب اللندني، من جميع النواحي منذ الفجر، فلم تسمح لضوء النهار باختراقها إلى تلك الأجواء الغائمة الكريهة.

كان الضباب بالخارج، عالقًا فوق النهر، ومتسللًا إلى داخل وخارج الممرات والحواري، ودائرًا في دوامات كثيفة بين الأشجار العارية في كل الحدائق والجنائن في أنحاء المدينة، كما كان داخل البيوت أيضًا، متسربًا عبر الشقوق والفتحات مثل أنفاس عفنة، مستغلًا فتح وإغلاق الأبواب كي يدخل محتالًا. كان ضبابًا أصفر، قذرًا، له رائحة شريرة، ضبابًا خانقًا يعمي العيون، ويلوث ويلطخ الأجساد. حمل الرجال والنساء أعمارَهم على أكُفّهم وتحسَّسوا طُرقَهم عبر الشوارع، متعثرين على الأرصفة، فتمسكوا بالأسوار وببعضهم البعض، طلبًا للاهتداء إلى الطريق.

تلاشت الأصوات، وتداخلت الأشكال، في ذلك الضباب الذي حلَّ قبل ثلاثة أيام ولا يبدو أنه يرغب في الرحيل، وكانت لديه -على ما أظن- السمات التي يختص بها هذا النوع من الضباب؛ الوعيد والشؤم، فيتنكر العالم المألوف ويرتبك الناس فيه، كما يرتبكون حين تُغطِّي أعينهم قطعة قماش ويُجبَرون على الدوران كما في لعبة «الغميضة».

لقد كان الطقس بائسًا بشكلٍ عامٍ، ومثبطًا للأرواح في أكثر شهور السنة كآبةً.

سيكون من السهل أن أنظر إلى الماضي الآن، وأن أعتقد أنني كنت ممتلئًا بهاجس تجاه تلك الرحلة، التي كنت على وشك القيام بها، وأن الحاسة السادسة، نوع من التخاطر أو الحدس، التي ترقد خاملةً في معظم الرجال، قد انتبهَتْ وانتابها حذرٌ داخلي، ولكن في تلك الأيام من شبابي، حين كنت شخصًا متماسكًا منطقيًا، لم أشعر بأيِّ عدم ارتياح أو توجُّس على الإطلاق. كان الاكتئاب قد أصاب روحي المبتهجة عادةً، بسبب الضباب أساسًا، وبسبب نوفمبر. يتشارك كل سكان لندن نفس هذا الشعور في تلك الأوقات الكئيبة.

بحسب ما يمكنني تذكُّره بأمانة شديدة، لم أكن أشعر بأي شيءٍ سوى الفضول، اهتمام مهني بحت بالعمل الشحيح الذي كلَّفَني به السيد بنتلي، ممزوجًا بشعور بسيط بالمغامرة، فقد كنت متجهًا إلى جزءٍ من إنجلترا لم أكن قد زرته من قبل، بالإضافة إلى شعورٍ معين بالارتياح لأنني سأترك هذه الأجواء المظلمة والضبابية غير الصحية. كنت في الثالثة والعشرين وما زلت أحتفظ بشغف طلبة المدارس بكل ما يتعلق بالسكك الحديدية ومحطات القطارات والسفر على متن العربات البخارية.

ولكن، لعل ما يجدر ملاحظته هنا، هو أنني أتذكر أدق تفاصيل هذا اليوم جيدًا، على الرغم من أنه لم يقع أي شيء يستحق التذكُّر بعد، وأنني كنت ثابت الأعصاب. لو أغمضت عيني الآن، لأمكنني تذكُّر كيف جلست على مقعد السيارة الأجرة، وهي تزحف خلال الضباب متجهةً إلى محطة (كينجز كروس)، ولأمكنني شم رائحة البرد، ورائحة قماش المقعد الرطب، ورائحة الضباب العفنة وهي تتسلل من النافذة، يمكنني الشعور بها على أذني كما لو أنَّ أذني قد امتلأت بالقطن.

خرجت دوائر الضوء الأصفر من نوافذ المحلات والبيوت، كما لو أنها كبريت يشع من الجحيم، وتصاعدت تلك الأضواء من أقبية البيوت كما لو كانت ألسنة لهب قادمة من قعر جهنم، كما شع الضوء الأحمر الساخن من باعة الكستناء الواقفين في زوايا الشوارع. هنا، تدفقت من أحد القدور فقاعات القار المغلي المُخصَّص لتمهيد الشارع بالأسفلت، وتصاعَد الدخان، الدخان الأحمر الشيطاني. وهناك، تراقصت وتمايلت شُعلة مصباح يحمله أحد مشعلي مصابيح الشوارع.

امتلأ الشارع بصخب المكابح وهي تدق الأرض، والأبواق الصارخة، وصرخات مئات السائقين الذين أعماهم الضباب وأبطأ حركتهم، وحين حدقت خارج نافذة السيارة، رأيت الأشكال التي تمكنت من تحديدها، تتعثر في خطاها في ظلمة الجو الغائم، كالأشباح، أفواههم وذقونهم ملفوفة في مناديل وأحجبة وقطع قماش، وحين يمرون في أمان الضوء المؤقت، تتحول عيونهم إلى اللون الأحمر كالشياطين.

استغرق قَطْع الميل بين مقر الشركة والمحطة، خمسين دقيقةً تقريبًا، وبما أنه لا يوجد ما يمكنني فعله، وبما أنني قد توقعت بالفعل هذا التأخير وبداية الرحلة البطيئة تلك، جلست مسترخيًا، محاولًا إقناع نفسي أن هذا هو أسوأ جزء من الرحلة، ثم حوَّلت الحوار الدائر في ذهني إلى الحديث الذي دار بيني وبين السيد بنتلي هذا الصباح.

كنت أعمل بتركيز على بعض التفاصيل المملة في عقود نقل مِلكيات العقارات، متناسيًا للحظة الضباب الذي ضغط على النافذة، مثل فروة وحش على ظهري، حين دخلَ تومس؛ الموظف، لاستدعائي إلى مكتب السيد بنتلي. كان تومس رجلًا ضئيل الحجم، ونحيلًا مثل عصا، وملامحه مثل الشمع، وكان مصابًا ببردٍ دائم يجعله يتنشق كل عشرين ثانية، وذلك بسبب وجوده حصرًا في تلك الفتحة المكعَّبة التي يحتفظ فيها بالدفاتر، ويستقبل فيها الزوار الذين يقابلهم بجو من المعاناة والكآبة، فينسون الأعمال التي جاءوا من أجلها إلى مكتب المحاماة، ويتذكرون وصايا الأموات.

كانت بالفعل وصية، تلك التي وضعها السيد بنتلي أمامه على المكتب حين دخلت غرفته الكبيرة المريحة بنوافذها الكبيرة التي تطل أثناء الطقس الصحو، على مشهد جيد لنقابة محامي المحاكم العليا وحدائقها، وهو ما يتيح رؤية تحركات نصف محامي لندن. «اجلس، يا آرثر، اجلس». ثم خلعَ السيد بنتلي نظارته، ومسحَها بنشاط، ثم أعادها على وجهه قبل أن يسترخي في كرسيه مثل رجلٍ يمتلئ بالرضا. كانت لدى السيد بنتلي قصة ليرويها، إنه يستمتع باستماع الناس إليه.

«لا أظن أنني أخبرتك من قبْل عن السيدة الرائعة، درابلو».

هززت رأسي، فهي بكل تأكيد أكثر إثارةً من عقود نقل الملكيات التي كنت أعمل عليها.

ردَّد: «السيدة درابلو»، وهو يلتقط الوصية ويهزها في وجهي عبر مكتب الشريك الذي يجلس خلفه.

«السيدة آليس درابلو، صاحبة منزل (إيل مارش)، توفيت، ألا تعرف بذلك؟»

«أها».

«نعم. لقد ورثت إدارة أعمال آليس درابلو عن والدي، فالشركة هنا تدير أعمال تلك العائلة منذ... ممم...» هزَّ يده. «منذ القرن الماضي، وتأسيس شركة بنتلي، شركة هاي وسويتمان وبنتلي».

«فعلًا؟»

قلّب الورقة في يده وقال: «زمن بعيد، ربما منذ عام ثمانية وأربعين».

«وهذه هي وصيتها التي تمسكها؟ هل آخذها؟»

رفع صوته قليلًا، متجاهلًا سؤالي الذي كسر تتابُع حكايته: «كانت السيد دربلو، كما يقول الناس، وراءها حكاية».

أومأتُ برأسي، فقد تعلمت بعد تلك السنوات الخمس في هذه الشركة، أن الكثير من زبائن السيد بنتلي القدامى، «وراءهم حكايات».

«هل سمعت من قبل بمسار السكك الحديدية المسمَّى (السبعة أرواح)؟»

«لا، أبدًا».

«ولا (إيل مارش) في مقاطعة...؟»

لا يا سيدي».

«وأظن أيضًا، أنك لم تزُر هذا الجزء من الريف قَطّ؟»

«مع الأسف، لا».

قال السيد بنتلي مستغرقًا في التفكير: «بإمكان الحياة هناك أن تجعل وراء أي شخص حكاية».

«ليس لديَّ سوى فكرة ضبابية عن هذا المكان».

«إذًا، يا عزيزي، عُد إلى بيتك، واحزم حقيبتك، واستقل قطار العصر من محطة (كينجز كروس)، ستبدل القطارات في محطة (كرو)، ثم مرة أخرى في محطة (هومبري). من محطة (هومبري)، تسلك الطريق الفرعي إلى قرية صغيرة تُدعَى (كرثين جيفورد). بعد ذلك تنتظر المد!»

«المد؟»

«ليس باستطاعتك عبور مسار (السبعة أرواح) إلا حين ينحسر المد، سيأخذك هذا المسار إلى (إيل مارش) وإلى المنزل».

«منزل السيدة درابلو؟»

«حين يرتفع المد، ستنقطع بك الطرق هناك حتى ينحسر مجددًا. مكان مثير»، قام السيد بنتلي واتجه ناحية النافذة.

«لقد مرت سنوات طويلة منذ ذهبت إلى هناك، أخذني والدي. لم تكن تحب الزائرين».

«هل كانت أرملة؟»

«بعد زواجها بوقت قصير، نعم».

«لديها أبناء؟»

ردَّد السيد بنتلي: «أبناء»، ثم حلَّ عليه الصمت للحظات، مسح قاعدة النافذة بإصبعه كما لو أنه يمسح الغموض عن الموضوع، ولكن كان الضباب ما يزال قابعًا في الأرجاء، أصفر رمادي، وأكثف من أي وقت مضى، إلا أن ضوء بعض الحجرات، هنا وهناك، لمعَ بشكلٍ مشوَّش عبر باحة نقابة المحاميين. بدأ جرس إحدى الكنائس يرن، فاستدار السيد بنتلي.

قال بحذرٍ: «وفقًا لكل ما نعرفه عن السيدة دربلو، لا، ليس لديها أبناء».

«هل لديها الكثير من المال أو الأراضي؟ هل كان إدارة أعمالها أمرًا معقدًا؟»

«ليس تمامًا يا آرثر، ليس تمامًا. كانت تمتلك بيتها، بالطبع، وبعض الممتلكات الأخرى في (كرثين جيفورد) - محلات ومستأجرين، هذا النوع من الأعمال، ولديها أيضًا مزرعة صغيرة، نصفها غارق تحت الماء. أنفقت بعض المال على مصدات للمياه هنا وهناك ولكنها لم تفِ بالغرض، وأيضًا بعض الاستثمارات الصغيرة والودائع».

«يبدو كل شيء واضحًا تمامًا».

«بالفعل، أليس كذلك؟»

«أتسمح لي بالسؤال عن سبب ذهابي إلى هناك؟»

«لكي تكون ممثلًا عن شركتنا في جنازة العميلة».

«طبعًا، بالتأكيد».

«لقد فكرت في الذهاب إلى هناك بنفسي، طبعًا، ولكن، لأكن صادقًا معك، إنَّ قدمي تؤلمني مجددًا طوال هذا الأسبوع». كان السيد بنتلي يعاني من النقرس، ولكنه لم

يكن يشير إليه بالاسم قط، على الرغم من أن لا شيء في هذا المرض قد يُسبِّب له العار؛ فقد كان رجلًا يكتفي بالقليل.

«ثم إنه من المحتمل أن يحتاج اللورد بولتروب رؤيتي، لا بُدَّ إذًا أن أكون هنا، هل تفهم؟»

«طبعًا، بالتأكيد».

«ثم أيضًا،» توقف للحظة ثم استكمل: «لقد حان الوقت لكي أضع على عاتقك مسؤوليات أكثر، هذا ليس شيئًا لا يمكنك القيام به، أليس كذلك؟»

«على الإطلاق، سيكون من دواعي سروري الذهاب إلى جنازة السيدة درابلو، بالطبع».

«الأمر أكثر تعقيدًا بعض الشيء من ذلك».

«الوصية؟»

«هناك مهمة عليك القيام بها، مهمة خاصة بالميراث، نعم. سأعطيك كافة التفاصيل كي تقرأها في طريقك، ولكن، من حيث المبدأ، سوف تقوم بفحص جميع أوراق السيدة درابلو، أوراقها الشخصية.. مهما كانت، مهما كانت...» ثم نخر السيد بنتلي قائلًا: «وتعود بها إلى المكتب».

«حاضر».

«كانت السيدة درابلو - إلى حدٍّ ما... يمكننا القول، غير منظمة، ربما تأخذ منك تلك المهمة بعض الوقت».

«يوم أو يومان؟»

«على الأقل، يوم أو يومان يا آرثر. بالطبع، من الممكن أن تكون الأمور قد تغيرت، وقد أكون مخطئًا.. من المحتمل أن تكون كافة الأمور مُرتَّبة، فلا يستغرق منك الأمر سوى ساعات. كما قلت لك، لقد مرت سنوات طويلة منذ آخر زيارة لي إلى هناك».

بدأت تبدو لي تلك المهمة أشبه بأحداث تدور في رواية من العصر الفيكتوري، حول امرأة منعزلة تخبئ الكثير من المستندات القديمة في مكانٍ ما في عُمق منزلها المبعثَر، ولكني لم آخذ السيد بنتلي على محمل الجد.

«هل سأحصل على مساعدة من أي شخص هناك؟»

«الجزء الأكبر من الميراث سيذهب إلى حفيد وحفيدة أخيها، كلاهما في الهند، قضيا هناك حوالي أربعين سنة. كان للمنزل مدبرة تدير شؤونه.. ولكنك ستجد المزيد من الأشخاص حين تذهب إلى هناك».

«ولكن من المفترض أن لها أصدقاء.. أو حتى جيران؟»

«(إيل مارش) بعيد جدًّا عن أي جيران».

«ولأن وراءها حكاية، أفترض لم يكن لها أي أصدقاء».

ضحك السيد بنتلي، وقال: «تعالَ يا آرثر، انظر إلى الجانب المشرق، وتعامل مع الوضع برمته كنزهة».

وقفت.

«على الأقل ستأخذك بعيدًا عن كل هذا ليوم أو يومين»، ثم أشار بيده إلى النافذة. هززت رأسي موافقًا. في الحقيقة، كنت منجذبًا جدًّا لفكرة الاستكشاف تلك، إلا أن السيد بنتلي، كما فهمت، لم يتمكن من مقاومة فكرة جعل تلك القصة المثيرة قصةً أكثر إثارةً، مضيفًا إلى دراما السيدة درابلو في منزلها الغريب غموضًا أكبر من الواقع. أعتقد أن المكان سيكون باردًا، غيرَ مريح، ومن الصعب الوصول إليه، وستكون الجنازة كئيبة، والأوراق التي سيتوجب عليَّ فحصها محشورةً تحت سرير في غرفة علوية في صندوق حذاء مغطى بالغبار، ولن يحتوي هذا الصندوق على أكثر من مجرد إيصالات قديمة ومسودات رسائل مشاكسة، موجهة إلى الجميع بلا استثناء - كل الأمور المعتادة لعميلة. أضاف السيد بنتلي حين بلغت باب مكتبه: «ستصل إلى (كرثين جيفورد) متأخرًا مساء الليلة، يوجد هناك نُزل صغير يمكنك قضاء الليلة فيه. الجنازة غدًا صباحًا في الحادية عشرة».

«وبعد الجنازة، تريد مني الذهاب إلى المنزل؟»

«لقد قمت بجميع الترتيبات.. سيقوم رجل من المدينة بترتيب كل التفاصيل... سيتواصل معك».

«جيد، ولكن...»

ظهر تومس فجأة في تلك اللحظة، وتنشق فوق كتفي.

«ميعاد العاشرة والنصف، يا سيد بنتلي».

«حسنٌ، حسنٌ، أدخِله».

«أريد لحظة أخرى يا سيد بنتلي...»

«ماذا تريد يا آرثر؟ لا تقف هكذا في مدخل المكتب، لديَّ عملٌ أقوم به».

«ألا يوجد أي شيء آخر يمكنك إخباري به، فأنا...»

أشاح بكفه نافذ الصبر، طالبًا مني الخروج، في تلك اللحظة عاد تومس، يتبعه الشخص الذي لديه موعد مع السيد بنتلي في العاشرة والنصف، فانسحبت من المكتب.

كان لا بُدَّ أن أرتب مكتبي، وأعود إلى الشقة كي أجهز حقيبة السفر، وأخبر مالكة البيت بأنني سأتغيب لبضعة أيام، وأكتب رسالة إلى خطيبتي، ستلا. تمنيت أن يقلّ غضبها بسبب غيابي المفاجئ عنها، حين تشعر بالفخر أن السيد بنتلي يأتمنني على

أعمال الشركة على هذا النحو، بشرى طيبة لمستقبلي الموعود، فقد كان زواجنا في العام المقبل يعتمد عليه.

كان لا بُدَّ أن ألحق بقطار العصر بعد ذلك، وأتجه إلى ركنٍ قصي من إنجلترا، لم أكن قد سمعت عنه قَطّ حتى دقائق مضت. في طريق خروجي من البناية، نقرَ تومس الكئيب على زجاج حجرته الصغيرة، وأعطاني مظروفًا بنيًّا غليظًا وقد كتب عليه بحروف كبيرة: «درابلو»، دسسته تحت إبطي واندفعت خارجًا إلى ضباب لندن الخانق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

الرحلة إلى الشمال

كانت الرحلة، كما قال السيد بنتلي بالفعل، مَهربًا من لندن، وعلى الرغم من المسافة البعيدة والسبب الكئيب وراءها، لم يكن هناك ما يمكنه رفع روحي المعنوية أثناء ترقب تلك المتعة القادمة، أكثر من رؤية مبنى محطة القطار العظيم من الداخل، وهو يلمع مثل فرن الحدَّاد. هنا، الضجيج في كل مكانٍ، واستعدادات المغادرة المَرِحة. اشتريت جرائد ومجلات من كشك الكتب، ومشيت بخطوات خفيفة على الرصيف بجوار عربات القطار التي تنفث الدخان. أذكر جيدًا اسم القطار الذي ركبته، (السير بيديفر).

وجدتُ مقعدًا في ركن مقصورة خالية، فعلقت معطفي وقبعتي وحقيبتي على الحامل، وجلست شاعرًا بالرضا. عندما خرج القطار من لندن، أصبح الضباب، على الرغم من أنه ما يزال جاثمًا على الضواحي، أكثر شحوبًا وتقرُّقًا، وهو ما لم يُشعِرني بالسعادة. كان مسافران آخران قد انضما إليَّ في المقصورة، ولكن بعد إيماءة تحية قصيرة، أصبح واضحًا أنهما ينويان الانشغال بجرائدهما ومستنداتهما الأخرى مثلي تمامًا، هكذا سافرنا أميالًا طويلة خالية من الأحداث باتجاه قلب إنجلترا. حلَّ الظلام سريعًا خارج النافذة، وبعد أن أغلقت الستائر، أصبحت المقصورة مريحةً ومنعزلةً مثل حجرة مكتب مضاءة بمصباح وحيد.

غيرت القطار في محطة (كرو) بسهولة، واستكملت طريقي. لاحظت أن مسار القطار قد مال ناحية الشرق قليلًا، بينما ما يزال متجهًا إلى الشمال، وتناولت وجبة عشاء جيدة. لم أشعر بعدم الارتياح إلا حين غيرت القطار مرة أخرى؛ أصبح الجو أكثر برودةً، وهبَّت الرياح في دفعات من ناحية الشرق ممزوجة بأمطار. كان القطار الذي يجب عليَّ ركوبه في الساعة الأخيرة من رحلتي، واحدًا من تلك القطارات القديمة، غير المريحة، وكانت مقاعده مغطاة بجلد قاسٍ ومحشوة بشعر أحصنة، كما كان الرف العلوي مصنوعًا من ألواح خشبية، وامتلأ الجو برائحة البرد والتفحم العفن، وكانت النوافذ متسخة والأرضيات غير مغسولة.

بدا لي حتى اللحظة الأخيرة، أنني سأكون وحدي، ليس في العربة فقط، ولكن في القطار كله، إلا أن رجلًا عبر الحاجز مع صفارة الحارس الأخيرة، وألقى بنظرة حزينة على صف العربات الفارغة، وحين لاحظ وجودي أخيرًا، بدا بوضوح أنه يفضِّل وجود رفقة. صعد إلى متن القطار وأغلق الباب خلفه في نفس اللحظة التي بدأ فيها القطار بالتحرك. أضافت سحابة البرد والهواء الرطب التي أدخلها معه إلى برودة المقصورة، فلاحظت كم كان الجو سيئًا في تلك الليلة، بينما بدأ ذلك الغريب في فك أزرار معطفه، نظر إليَّ متفحصًا من أعلى إلى أسفل، ولكنها لم تكن نظرة غير ودودة على الإطلاق، ثم نظر إلى أشيائي على الرف قبل أن يومئ مستحسنًا.

«يبدو أنني استبدلت جوًا سيئًا بآخر سيء، تركت لندن في قبضة ضباب مريع، وهنا يبدو الجو باردًا كفاية لهطول الثلوج».

قال: «لن يهطل الثلج، ستهب الرياح حتى تتوقف صباحًا وقد دفعت المطر بعيدًا».

«يسعدني سماع ذلك».

«ولكن إذا كنت تظن أنك ستهرب من الضباب بقدومك إلى هنا، فأنت مخطئ. لدينا نفحات سيئة في هذا الجزء من العالم».

«نفحات؟»

«نعم، نفحات. نفحات بحرية، نفحات ضباب، يصعدون في دقيقة واحدة من البحر إلى البر عبر المستنقعات، إنها طبيعة المكان. في لحظة يتحول الجو الصحو مثل يوم في يونيو إلى...» أشار بيده ليوضح السرعة الدرامية لتلك النفحات. «شنيعة، ولكن إذا كنت ستقيم في (كرثين)، فلن ترى أسوأ ما في تلك الطبيعة».

«سأقيم هناك الليلة، في نُزل (جيفورد آرمز) وغدًا صباحًا، أتوقع أن أخرج في جولة لمشاهدة المستنقعات».

ثم التقطت الجريدة، غير راغب في مناقشة طبيعة المهمة التي جاءت بي إلى هنا، وفردت صفحاتها بحركة متكبرة، وهكذا لوقت قصير، استمرينا في هذا القطار المقرف، صامتيّن، فلم يكن ثمة صوت سوى نفثات دخان المحرك، واصطكاك العجلات الحديدة على القضبان الحديدية، كما لو كانت قذائف مدفعية خفيفة على النوافذ.

بدأت أشعر بالإرهاق، من الرحلة، من البرد، من الجلوس ساكنًا بينما يرجنا القطار، وبدأت في التطلع إلى العشاء، والمدفأة، والسرير الدافئ. في الحقيقة، كنت قد قرأت الجريدة بأكملها، على الرغم من أنني أتخفى الآن خلف صفحاتها، فبدأت في وضع الفرضيات حول رفيقي في المقصورة. كان رجلًا ضخمًا، وجهه ممتلئ كبير، وكفاه تبدوان قاسيتين، يتحدث بلباقة بشكلٍ كافٍ وإن كانت له لكنة غريبة، خمنت أنها لكنة محلّية. استنتجت أنه مزارع، أو مالك عملٍ صغيرٍ. كان أقرب إلى الستين، وملابسه ذات جودة عالية وإن كانت فجة بعض الشيء، ويضع خاتمًا كبيرًا منقوشًا في أحد أصابع يده اليسرى، فأضاف ذلك الخاتم إليه جوًّا من التجدد، وبعض الفجاجة. قررت في نفسي أن ذلك الرجل قد أصبح غنيًا متأخرًا في حياته وعلى نحوٍ غير متوَقَّع، وأنه يحب أن يُظهِر غناه ذلك إلى العالم.

بعد أن وصلت إلى حُكمي بخصوصه وقررت أن أتجاهله على هذا النحو الصبياني المتزمت، تركت خيالي يسرح عائدًا إلى لندن وإلى ستلا. لم أعد أشعر بأي شيءٍ سوى البرد القارس والألم في مفاصلي، حتى خضني رفيقي قائلًا: «السيدة درابلو»، فأنزلت الجريدة ولاحظت كيف تردد صوته المرتفع عبر المقصورة؛ كان القطار قد توقف، ولم يكن ثمة صوت إلا عواء الريح، وهسيس البخار المنخفض بعيدًا في مقدمة القطار.

قال: «درابلو»، وأشار إلى المظروف البني الذي يحتوي على أوراقها، كنت قد تركته على المقعد الخالي بجواري.

أومأت بعناد.

«لا تقل لي إنك أحد أقاربها؟»

«أنا محاميها»، أسعدني سماع تلك الكلمة وأنا أقولها.

«آه، ذاهب إلى الجنازة؟»

«بالفعل».

«ستكون الوحيد الذي يذهب إليها». أردت أن أعرف المزيد، ومن الواضح أن رفيقي أدرك ذلك، رغم محاولاتي إخفاء هذه الرغبة.

«أعرف أنها بلا أصدقاء - أو أقارب مباشرين - وأنها كانت منعزلة؟ أليس هذا حال الكثير من العجائز؟ يصبحون أكثر انعكافًا على أنفسهم، أظن أن الوحدة تسبب ذلك».

«يمكنني قول إن هذا صحيح، يا سيد...؟»

«كيبس، آرثر كيبس».

«صامويل دايلي».

أومأ كلٌّ منَّا إلى الآخر.

«كما أن هذا يحدث بسهولة شديدة إذا كنت تعيش في مثل هذا المكان».

قلت مبتسمًا: «لا، أنت لن تبدأ في حكاية أمور عجيبة عن المنازل المنعزلة؟»

نظر إليَّ بثبات، ثم قال أخيرًا: «لا، لن أحكي شيئًا».

ارتجفت لسبب ما، وزادت نظرته الثابتة وأسلوبه المباشر، من ارتجافي.

رددت عليه في النهاية: «حسنٌ، كل ما يمكنني قوله إنه لأمر محزن أن يعيش المرء لسبع وثمانين سنة دون أن يتمكن من توقُّع بعض الوجوه الصديقة في جنازته!»

مسحت زجاج النافذة بكفي، محاوِلًا الرؤية في الظلام خارجها. بدا أننا قد توقفنا في منتصف الريف المفتوح، وأن الرياح تهب بأقصى قوتها عبر الحقول. حاولت أن أبدو غير منزعج، قلت: «كم تبقى من الطريق؟» ولكني كنت أشعر بشعور سيء بسبب ابتعادنا عن أي مكان يسكنه البشر، وأننا عالقان في تابوت عربة القطار الباردة وزجاجها المنقور وألواحها الخشبية السوداء المتسخة. أخرج السيد دايلي ساعته.

«اثنا عشر ميلًا، لقد توقفنا لكي نسمح بعبور القطار العائد من نفق (جيبماوث). إن التلال التي يخترقها ذلك النفق، هي آخر الأراضي المرتفعة في الأميال القادمة، لقد وصلت إلى الأراضي المسطحة يا سيد كيبس».

«لقد وصلت إلى أراضي الأسماء المثيرة للفضول بالتأكيد. لقد سمعت هذا الصباح عن مسار (السبعة أرواح)، و(إيل مارش)، والآن نفق (جيبماوث)».

«إنه جزء بعيد من العالم، ولا يأتي الكثير من الزوار».

«أظن أنه لا يوجد شيء يجذب الأنظار هنا».

ضحك قائلًا: «هذا يعتمد على ما تعنيه بـ «شيء.» توجد الكنائس الغارقة، والقرى المغمورة، هذه الأماكن بالتحديد أمثلة على «الأشياء التي لا تجذب الأنظار». كما أن لدينا خرائب دير ومقبرته الجميلة - يمكنك الوصول إلى هناك أثناء انحسار المد، كل هذا يعتمد على نوعية الأشياء التي تجذب فضولك!»

«إنك تجعلني راغبًا في العودة إلى ذلك الطقس اللندني الغريب!»

سمعنا صوت صفير القطار.

«ها هو يأتي»، ثم ظهر القطار القادم من (كرثين جيفورد) متجهًا إلى (هومبري)، خارجًا من نفق (جيبماوث)، يتدحرج بجوارنا. اختفى طابور العربات الخاوية المضاءة بنور أصفر في الظلام، وبدأنا في التحرك مجددًا على الفور.

«ولكنك ستجد كل شيء يرحب بك في (كرثين)، إنه مكان صغير وبسيط. نتدثر جيدًا ونعطي ظهورنا للرياح، ونقوم بأعمالنا. يمكنني اصطحابك إلى نُزل (جيفورد آرمز) إذا أردت - ستكون سيارتي بانتظاري في المحطة، كما أن النُزل في طريقي».

بدا حريصًا على تهدئتي، خصوصًا بعد مبالغته المزعجة عن غرابة وسوداوية المنطقة، شكرته وقبلت العرض، بعد ذلك عاد كلٌّ منَّا إلى قراءته طوال ما تبقى من أميال في تلك الرحلة المملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٤)

جنازة السيدة درابلو

كان انطباعي الأول عن (كرثين جيفورد) إيجابيًّا بوضوح، فلم تكن أكثر من مجرد مدينة صغيرة، يُقام فيها السوق الرئيسي للمنطقة، بل بدت أكبر قليلٍ من قرية كبيرة. بعد أن وصلنا ليلًا، ركبنا سيارة السيد دايلي، فكانت أكثر السيارات الفاخرة التي ركبتها في حياتي بريقًا واتساعًا، وقطعت الميل بين محطة القطار الصغيرة وميدان السوق حيث يوجد نُزل (جيفورد آرمز) سريعًا.

حين هممت بالترجل، مد يده ببطاقة مدوَّن عليها بياناته، وقال: «في حالة احتجت أحدًا...»

شكرته، وأكدت له أن من غير المحتمل أن أحتاج إلى أحدٍ، فسوف أحصل على كل المساعدة التي سأطلبها من الموظف المحلي، لكي أنظم المستندات الخاصة بأعمال السيدة درابلو، وأنني لا أنوي البقاء في المكان لأكثر من يوم أو يومين. حدق السيد دايلي فيَّ بثبات، ولم يقل شيئًا، لم أرِد أن أتصرف على نحوٍ غير لائق، فأخذت البطاقة ودسستها في جيب معطفي بعناية. في تلك اللحظة فقط، أصدر أمره إلى السائق، وانطلق مبتعدًا.

كان قد قال في وقت مبكر: «ستجد كل شيء يرحب بك في (كرثين)»، وقد كان محقًّا. اعتدل مزاجي بمجرد أن رأيت المدفأة المشتعلة والكرسي الوثير في قاعة استقبال النُزل، ووجدت مدفأة أخرى بانتظاري في الغرفة المفروشة بأثاث أنيق في الأعلى، وبدأت أشعر وكأني شخص في إجازة، وليس شخصًا جاء إلى هنا من أجل حضور جنازة، والقيام بالأعمال المضنية التي تصحب وفاة أحد العملاء. كانت الرياح قد توقفت تمامًا، أو أنني لم أتمكن من سماعها بسبب البنايات المتناثرة حول الميدان التي عملت مثل مصد للرياح، وسرعان ما اختفى عدم ارتياحي، وذبلت المحادثة الغريبة التي خضتها أثناء الرحلة مثل حُلم سيء.

عرض عليَّ مالك النُزل كأسًا من النبيذ الساخن، فشربته بينما أجلس بجوار المدفأة، أستمع إلى همهمات الأصوات القادمة من الجهة الأخرى للباب المؤدي إلى الحانة العامة. جعلت زوجة مالك النُزل لعابي يسيل ترقبًا للعشاء الذي عرضته عليَّ - حساء أعدَّتْهُ بنفسها، وقطعة لحم مشوي، وكعك التفاح والزبيب مع الكريمة، وقطعة جبن أزرق إنجليزي. وبينما أنتظر، كتبت رسالة قصيرة إلى ستيلا، عبرت فيها عن شغفي، وخططت أن أرسلها بالبريد في صباح اليوم التالي، وأثناء تناولي للعشاء بحماسة، سرحت في تفاصيل البيت الذي سنتمكن من تحمُّل تكاليفه، والعيش فيه بعد الزواج، إذا ظلَّ السيد بنتلي يمنحني مثل تلك المسؤوليات في الشركة، ربما سيكون من حقي حينها طلب زيادة في الراتب.

على أي حالٍ، بعد انتهاء نصف زجاجة النبيذ الأحمر التي صاحبت العشاء، استعددت للذهاب إلى السرير، متألقًا بدفء العافية والرضا.

قال مالك النّزل الذي انتظرني عند الباب ليلقي عليَّ تحية المساء: «أظن أنك جئت إلى هنا لحضور المزاد، يا سيدي، أليس كذلك؟»

«المزاد؟»

بدا متفاجئًا وقال: «آه، ظننت أنك جئت إلى هنا من أجله - سيُقام مزاد كبير لبيع العديد من المزارع الواقعة جنوب هذه المنطقة، كما أن غدًا يوم السوق أيضًا».

«أين سيُقام المزاد؟»

«هنا، يا سيد كيبس، في الحانة العامة في الحادية عشرة. تُقام مثل تلك المزادات هنا في (جيفورد آرمز) بشكل عام، ولكننا لم نستضف مزادًا بهذا الحجم منذ سنوات، كما أننا نقدِّم وجبات الغداء بعده، نتوقع أن نقدِّم أربعين وجبة في يوم السوق، إلا أن هذا العدد سيزيد قليلًا غدًا».

«مع الأسف، لن أتمكن من الحضور، إلا أنني أتمنى أن تُتَاح لي فرصة التجول في السوق لبعض الوقت».

«لم أقصد التدخل في شؤونك يا سيدي - كنت فقط أريد أن أتأكد إذا كنت هنا من أجل المزاد».

«لا مشكلة - من الطبيعي أن تريد أن تعرف، ولكن في الحادية عشرة من صباح الغد، لدي ارتباط حزين، مع الأسف، فأنا هنا من أجل حضور جنازة - جنازة السيدة درابلو، مالكة منزل (إيل مارش)-. ربما تعرفها؟»

ارتعش وجهه بـ... بماذا؟ بالتوجس، ربما؟ بالشك؟ لم أتمكن من تحديد ذلك، إلا أن الاسم أثار بعض المشاعر القوية داخله، وهو ما حاوَل إخفاءه على الفور.

قال بهدوء: «كنت أعرفها».

«أنا ممثِّل شركة المحاماة الخاصة بها. لم أقابلها من قبل، أعرف أنها ظلت بعيدًا عن الأنظار لمعظم الوقت؟»

قال: «لم يكن بإمكانها فعل غير ذلك وهي تعيش هناك»، ثم استدار فجأة في اتجاه الحانة العامة، وقال: «تصبح على خير يا سيدي، يمكنك طلب الإفطار في أي وقتٍ يلائمك في الصباح». تركني وحدي. كنت على وشْكِ التحرُّك لمناداته، فقد أثار تصرفه فضولي وأزعجني بعض الشيء، وفكرت أن أحاول دفعه إلى شرح ما يقصده بذلك، ولكني كنت متعبًا، فتجاهلت الفكرة وقررت أن كلماته تلك لم تكن سوى بسبب الحكايات والسخافات المحلية التي كانت قد تكاثرت أكثر من اللازم، كما يحدث دائمًا في المجتمعات الصغيرة المنعزلة، التي لا يجد فيها الناس أيَّ مصدر سوى بعضهم بعضًا، فيستخلصون من أنفسهم دراما الحياة وغموضها. لا بُدَّ أن أعترف أنني في تلك الأيام، كنت أشعر بالامتياز، كوني من لندن، وكنت مقتنعًا تمامًا بنصف الحقيقة التي تقول إن سكان الريف أكثر إيمانًا بالخرافات، خصوصًا أولئك الذين يقطنون الأنحاء الأكثر انعزالًا من الجزيرة الإنجليزية، إنهم أبطأ فهمًا، وأقل رُقيًّا، وأكثر سذاجةً، وحتى أكثر بدائيةً، منَّا نحن سكان المدن الكبيرة. لا شكَّ

أن أي امرأة عجوز بائسة في تلك الأماكن التي تشبه هذا المكان، بمستنقعاته المخيفة، وضبابه المفاجئ، وعويل رياحه وانعزال منازله، سيُنظر إليها بارتياب، ففي قديم العصر والأوان، كان الناس يعتبرون مثل هؤلاء النساء ساحرات. كانت الأساطير المحلية والحكايات ما زالت متداولة، وبعض الناس ما زالوا مؤمنين إلى حدٍّ ما بالقصص الفلكلورية المُبالَغ فيها.

في الحقيقة، لم يكن السيد دايلي أو مالك النُزل إلا رجلين حازمين وصاحبي منطق سليم، ويجب أن أعترف أنهما لم يفعلا أكثر من أن يلتزما الصمت أو ينظرا لي بثبات وبشيء من الغرابة، كلما أتت سيرة السيدة درابلو، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن لديَّ أدنى شك أن وراء هذا الصمت أمورًا ذات مغزى.

في تلك الليلة، نمت نومًا عميقًا، ففي المجمل، كانت معدتي مملوءة بطعام منزلي، وشعرت بدوار خفيف مُحبَّب بسبب النبيذ الجيد، فقلبت أغطية السرير الناعمة، وتركت نفسي أتسلى بتلك المهمة، مستمتعًا بها وبما أضافته الألوان والبهارات المحلية إلى تلك الرحلة المليئة بالاكتشافات. ما زال بإمكاني تذكر ذلك الشعور، الشعور بالانزلاق إلى الأسفل، إلى أذرع النوم المرحِّبة، يحوِّطني الدفء والنعومة، وأشعر بالسعادة والأمان مثل طفل صغير في غرفة نومه، وأذكر كيف استيقظت صباح اليوم التالي أيضًا، كيف فتحت عيني لأرى أعمدة نور الشمس الشتوية وهي تتراقص على السقف الأبيض المائل، وكيف شعرت بذلك الشعور المنعش من الارتياح والانتعاش في عقلي وفي أطرافي. ربما أذكر تلك المشاعر بهذا الوضوح بسبب تناقضها التام مع ما حدث بعدها، وربما لو عرفت حينها أن تلك الليلة من النوم الهانئ هي آخر ليلة أستمتع بها، وأن ليالي مرعبة ومخيفة ستأتي، لما كنت قفزت خارجًا من السرير بكل هذه الرشاقة، وما كنت تطلعت إلى النزول وتناول الإفطار ثم الانطلاق خارجًا لكي أبدأ اليوم.

حتى في هذه اللحظة الآن، بعد مرور كل تلك السنوات، وعلى الرغم من أنني سعيد هانئ في منزلي في (مونكس بيس) مع زوجتي إزمي، ولديّ كل ما يتطلع إليه جميع الرجال، وعلى الرغم من أنني أحمد الله كل ليلة على انتهاء كل تلك الأحداث، وأن الأمر ليس سوى ماضٍ سحيق لن يعود أبدًا ولا يمكن أن يعود، إلا أنني لم أنم جيدًا قَط، منذ تلك الليلة في النُزل في (كرثين جيفورد). أرى أن السبب وراء ذلك النوم هو أنني كنت ما أزال في حالة براءة، ولكن ما أن تُفقد تلك البراءة، حتى تظل مفقودة إلى الأبد.

لم يكن ضوء الشمس الذي ملأ غرفتي حين فتحت الستائر المزهرة، زائرًا صباحيًا سريعًا، فعلى النقيض من ضباب لندن، وبرغم الرياح والأمطار في الليلة الفائتة أثناء الرحلة إلى هنا، كان الطقس قد تغير تمامًا كما توقع السيد دايلي بثقة.

على الرغم من أن تلك المنطقة تقع في ركن بارد من إنجلترا، وبرغم أننا ما نزال في بداية شهر نوفمبر، كان الهواء منعشًا وصافيًا حين خرجت من نُزل (جيفورد آرمز) بعد أن استمتعت بتناول إفطار استثنائي، كما كانت السماء زرقاء مثل بيض طيور الشحرور. كان معظم المدنية الصغيرة مبنيًا من الأحجار والألواح الصخرية

الرمادية، والبيوت منخفضة ومُكوَّمة بجوار بعضها، ويواجه أحدها الآخر. تجولت في الأنحاء مستكشفًا نمط المدينة - عدد من الشوارع الضيقة المستقيمة أو الطرق تصب عند كل زاوية من زوايا ميدان السوق المكتظ، حيث يقع النُزُل، بدأ الميدان يمتلئ بالأكشاك والأقفاص وعربات النقل والمقطورات؛ استعدادًا للسوق. جاءت أصوات الرجال المرتفعة وهم يتحدثون من جميع الأركان، يعملون في دق الأسوار المؤقتة، وسحب الأقمشة على الأقفاص، وجر عربات اليد على الحصى. لقد كان مشهدًا بهيجًا وهادفًا، لم أستمتع بمثله في أي مكان آخر، فتجولت بينهم وتطلعت إلى كل التفاصيل، إلا أنني حين أدرت ظهري مبتعدًا عن السوق واتجهت إلى أحد الطرق، توقفت جميع الأصوات فجأة، ولم أعد أسمع سوى صوت خطواتي أمام البيوت الهادئة. كانت الأرض مستوية، بلا أي مرتفعات أو منحدرات. كانت (كرثين جيفورد) أرضًا مستوية تمامًا، إلا أنني حين وصلت إلى نهاية أحد الطرق فجأة، وجدت نفسي في الريف المفتوح، رأيت حقولًا تمتد خلف حقول حتى تصل إلى الأفق الشاحب. رأيت حينها ما كان يقصده السيد دايلي حين قال إن تلك القرية تتدثر وتعطي ظهرها للرياح، فقد كان كل ما يمكن رؤيته منها في تلك البقعة ليس سوى ظهور البيوت والمحلات والمباني العامة في الميدان.

كانت هناك لمسة دفء في ضوء الشمس الخريفي. مالت الأشجار القليلة التي رأيتها، بسبب الرياح القوية، ما تزال بعض الأوراق الذهبية الخشنة متمسكة بأطراف الفروع. تخيلت كيف سيبدو المكان مرعبًا ورماديًا وكئيبًا في المطر والضباب، وكيف ستضربه العواصف وتمزقه في تلك الأيام الطويلة التي ستكتسح الريف المفتوح، وكيف سيصبح المكان منعزلًا تمامًا بسبب هطول الثلج. كنت قد بحثت عن موقع (كرثين جيفورد) على الخريطة هذا الصباح، يحدها الفراغ شمالًا وجنوبًا وغربًا لأميال كثيرة - يفصلها اثنا عشر ميلًا عن (هومبري) أقرب المدن إليها، وثلاثون ميلًا عن قرية كبيرة باتجاه الجنوب، وسبعة أميال عن أقرب قرية، ويحدها من الشرق مستنقعات، ثم الخليج حيث مصب النهر والبحر. لم يكن المكان ليناسبني لأكثر من يوم أو يومين، ولكني شعرت كأنني في موطني بينما أتمشى عائدًا إلى السوق، شعرت بالرضا، وأنعشني سطوع النهار، وملأني كلُّ ما رأيت بالانبهار.

عندما وصلت إلى النُّزل مجددًا، وجدت أن السيد جيروم، الموظف المسؤول عن إدارة ممتلكات وأراضي السيدة درابلو، قد تركَ لي رسالة، وحيث أنه سيصحبني إلى الجنازة، كتبَ بخطه الرسمي المنمق أنه سيعود في العاشرة وأربعين دقيقة ليأخذني إلى الكنيسة، فجلست أمام النافذة في غرفة استقبال الضيوف في نُزل (جيفورد آرمز)، في انتظار ذلك الموعد، قرأت الجريدة اليومية وشاهدت استعدادات السوق. كان في داخل النُّزل الكثير من النشاط أيضًا، واستنتجت أن لذلك علاقة بالمزاد. هبت من المطبخ روائح الطعام الغنية مع فتح وإغلاق الباب المستمر، شممت رائحة شواء اللحم، ورائحة الخبز والكعك والشطائر والمخبوزات، كما سمعت أصوات احتكاك الملاعق قادمة من غرفة الطعام. بحلول العاشرة وعشرين دقيقة، كان الرصيف بالخارج قد ازدحم تمامًا بالمزارعين

الأشداء، بدت عليهم الرفاهية في أزيائهم الصوفية، يرحِّبون ببعضهم ويتصافحون ويهزون رؤوسهم بفجاجة أثناء الحديث.

أحزنني أنني يجب أن أترك كل هذا. كنت مرتديًا حُلتي الرسمية السوداء ومعطفي، وعلى ذراعي شريطة سوداء بالإضافة إلى رابطة عنق سوداء، وأمسك بقبعة سوداء في يدي، حين وصل السيد جيروم - لم يكن من الممكن عدم التعرف عليه بسبب ملابسه الكئيبة - تصافحنا وخرجنا إلى الشارع. شعرت بينما أقف هناك للحظاتٍ وأنظر إلى تلك المشاهد الملونة النشيطة، كأنني أشاهد احتفالًا صاخبًا، وأن ظهورنا بين هؤلاء الرجال في ملابسهم الريفية، يشبه ظهور غرابَيْن قاتمين، وبدا أن ذلك بالتحديد هو الانطباع الذي تركناه عند جميع من رآنا، فقد كنا محط أنظار منزعجة أثناء عبورنا الميدان، ابتعد عنا الرجال قليلًا، وحلَّ عليهم الصمت والجمود في منتصف أحاديثهم، حتى بدأت أشعر بالتعاسة، كأنني متطفِّل ما، وأسعدني دخولنا أحد الشوارع الهادئة المتجهة مباشرةً، كما شرح لي السيد جيروم، إلى الكنيسة.

كان السيد جيروم رجلًا ضئيل الحجم بشكل لافت، ربما لا يتجاوز طولُه خمس أقدام وبوصتين أو ثلاث، وله رأس مقبب بشكل استثنائي، وتتدلى خصلات شعر بني خلفها، مثل الشراشب المعلقة حول أغطية المصابيح، ويمكن أن يكون عمره قد بلغ الخامسة والثلاثين أو السابعة والخمسين أو أي رقم بينهما على الأرجح، يتصرف بشكل رسمي ولطيف، ولا تكشف ملامح وجهه المغلقة عن شخصيته أو مزاجه أو أفكاره. كان مهذَّبًا، يتحلى بأخلاق العمل، فيتحدث ولكن بلا أي حميمية. سألني عن الرحلة، ومدى ارتياحي في (جيفورد آرامز)، وسأل عن السيد بنتلي، وعن طقس لندن، وأخبرني باسم الكاهن الذي سيترأس مراسم الجنازة، وبعدد ممتلكات السيدة درابلو التي لم تتجاوز بضعة أملاك في المدينة والضواحي المتاخمة، ورغم كل ذلك، بدا وكأنه لم يقل شيئًا على الإطلاق، لا كلام شخصي، لا كلام كاشف، لا كلام مثير للاهتمام.

سألته: «أعرف أنها ستُدفن في باحة الكنيسة، أليس هذا صحيحًا؟»

نظر إليَّ السيد جيروم بجانب عينيه، فلاحظت أن عينيه الكبيرتين الشاحبتين فيهما جحوظ خفيف، وأن لونهما بين الأزرق والرمادي، يُذكِّرني بلون بيض النوارس.

«بالفعل، نعم يا سيدي».

«هل هناك مقبرة خاصة بالعائلة؟»

صمت للحظة، ونظر إليَّ عن كثب مرةً أخرى، كما لو أنه يحاول اكتشاف ما إذا كان هناك أي معنى غامض وراء هذا السؤال المباشر، ثم قال: «لا، على الأقل ليس هنا، ليس في باحة تلك الكنيسة».

«في مكانٍ آخر؟»

قال بعد تفكير: «إنها... لم تعد مستخدمة، المكان هناك غير ملائم».

«أخشى أنني لم أفهم تمامًا...»

أدركت في تلك اللحظة أننا قد وصلنا إلى الكنيسة، يمكن الدخول إليها عبر بوابة حديدية بين شجرتي سرو، وتقع في نهاية طريق طويل مستقيم. على الجانب الأيمن، تنتصب شواهد القبور، أما على الجانب الأيسر، فيوجد مبنى، خمنت أنه قاعات الكنيسة، وبجواره مبنى مدرسة قريبة، يتدلى من حائطها العالي جرسٌ، وتأتي من داخلها أصوات الأطفال.

اضطررت إلى تعليق استجوابي عن عائلة درابلو ومقبرتها، ورسمت على وجهي، كما فعل السيد جيروم، تعبيرات الحزن، ومشينا بخطوات محسوبة باتجاه رواق الكنيسة. انتظرنا هناك لخمس دقائق، ولكنها بدت أطول من ذلك بكثير، انتظرنا وحدنا حتى اقتربت سيارة الموتى من البوابة، ثم ظهر شخص بجوارنا فجأة، أظنه جاء من داخل الكنيسة. وقف ثلاثتنا نتابع نعش السيدة درابلو الكئيب على أكتاف رجال تجهيز الموتى، وهم يتقدمون ببطء باتجاهنا.

كانت صلاة قصيرة وكئيبة، لم يحضرها سوى عدد قليل في تلك الكنيسة الباردة. ارتعشت حين فكرت مجددًا كم هو حزين بشكلٍ يفوق الوصف، أن حياة إنسان كاملة، منذ الميلاد والطفولة، مرورًا بالنضج والبلوغ، إلى التقدُّم في السن، تنتهي على هذا النحو، بلا أقرباء أو أصدقاء، فقط رجلان لا يجمعهما سوى العمل، أحدهما لم يضع عينيه على تلك المرأة في حياتها قَطّ، بالإضافة إلى هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين لم يحضروا إلا لتأدية عملهم الكئيب.

استدرت نصف استدارة خاطفة قبل نهاية الطقوس، بعد أن سمعت خلفي صوت حركة، فلمحت امرأة، لا بُدَّ أنها تسللت إلى الكنيسة بعد أن احتل كلٌّ منا مكانه. كانت تجلس في نهاية الصفوف وحدها، ثابتة ومنتصبة القامة، ولا تحمل كتاب الصلوات. وكانت ترتدي ملابس سوداء قاتمة للغاية، على طراز ملابس الحداد التي لم يعد أحد يرتديها إلا في دوائر المحاكم في المناسبات الرسمية، بحسب ما أعتقد. كان من الواضح بالطبع أن تلك المرأة أخرجت ملابسها من قعر صندوق قديم أو خزانة، فقد كان واضحًا بهوت لونها، وكانت تغطي رأسها بقبعة وتغطي وجهها. وعلى الرغم من أنني لم أحدِّق فيها طويلًا، إلا أن في تلك اللمحة السريعة رأيت ما يكفي لكي أدرك كم كانت تلك المرأة تعاني من هزال رهيب، لم يكن وجهها فقط، بل إن بشرتها، كما بدا لي بالمقارنة مع ملابسها السوداء، سوى طبقة رقيقة منهكة ومشدودة على عظامها، وتلمع ببريقٍ أزرق مثير للفضول، كما بدت عيناها غارقتين في رأسها. كانت كفاها المرتخيتان أمامها على المقعد، في نفس الحالة، كما لو أنها إحدى ضحايا المجاعات. وعلى الرغم من أنني لم أكن خبيرًا في الطب، إلا أنني سمعت عن حالة طبية تسبب مثل هذا الهزال المريع، هذا التحلل للحم البشري، وأعرف أنها حالة لا يمكن الشفاء منها. بدا لي الوضع مؤثرًا، أن تخرج امرأة على وشك الموت لكي تحضر جنازة امرأة أخرى. لم يكن يبدو عليها التقدم في السن، ولكنه تأثير المرض، مما جعل من الصعب تخمين عمرها، ولكن من المرجَّح جدًّا أنها لم تتجاوز الثلاثين. قبل أن ألتفت إلى الوراء، وعَدتُ نفسي أن أتحدث معها بعد الجنازة، وأعرض عليها أي مساعدة يمكنني تقديمها، ولكن بمجرد أن استعددنا

للتحرك وراء القس والنعش، سمعت صوت حركة خفيفة مرة أخرى، وأدركت أن المرأة المجهولة قد تسللت إلى الخارج، ذهبت إلى القبر المفتوح، ولكنها كانت تقف بعيدًا عنه بضع أقدام بجوار شاهد قبر آخر، نمت عليه الحشائش، واستندت إليه قليلًا. كان مظهرها، حتى في ضوء النهار الرائق وحرارة الأجواء النسبية، هزيلًا بشكل مثير للشفقة، كانت شاحبةً، أضناها المرض، حتى إن مجرد التحديق فيها يُعَدّ أمرًا قاسيًا. كانت ما تزال تحتفظ بأثرٍ بسيطٍ في ملامحها، بإشارة لم تنطفئ تمامًا، أنها كانت ذات يوم جميلة بقدرٍ غيرٍ قليل، من المؤكد أن ذلك جعلها تنزعج من حالتها الحالية بشدة، مثل مريضٍ جُدري، أو شخص شوَّهته حروقٌ مريعة.

فكرت في أن شخصًا، على الأقل، مهتم، لا أعرف إلى أي مدى، وبالتأكيد لا أعرف إلى أي درجة من الحميمية واللطف، إلا أن مثل تلك الشجاعة والإيثار، لا يجب أن تذهب دون مكافأة أو إشارة، خصوصًا بعد الكلمات التي سمعناها داخل الكنيسة.

أشحت بنظري بعيدًا عن المرأة، وعدت إلى النعش الذي كان يتم إنزاله في الأرض، ومِلتُ برأسي ودعوت ممتلئًا بانتفاضة اهتمام مفاجئة، لروح تلك المرأة العجوز الوحيدة، ولكي تنزل البركة على حلقتنا الكئيبة تلك، حول القبر.

حين رفعت عيني مجددًا، رأيت شحرورًا أسودَ، يقف على شجيرة بهشية على بُعد بضع أقدام، سمعته يفتح فمه ليسكب أغانيه المتألقة في شمس نوفمبر، بعد ذلك، انتهى الطقس، وبدأنا في التحرك بعيدًا عن القبر، كنت أمشي متأخرًا خطوةً عن السيد جيروم، لأنني أردت انتظار المرأة المريضة وتقديم ذراعي لها واصطحابها خارجًا، ولكنني لم أعد أراها في أي مكان.

لا بُدَّ أنها ذهبت في الخفاء مثلما وصلت، بينما كنت أردد الدعوات والقس يردد كلمات الدفن الأخيرة، ربما لم ترد أن تزعجنا أو أن تلفت الأنظار إليها بأي شكل.

وقفنا عند بوابة الكنيسة للحظات قليلة، نتحدث بأدب جم، ثم تصافحنا. تحينت الفرصة كي أنظر من حولي في هذا الجو الصافي وضوء النهار الباهر، يمكنني الرؤية بوضوح لمسافة بعيدة خلف الكنيسة والمقابر، وصولًا إلى المستنقعات والأحراش الرصاصية اللامعة، التي لمعت أكثر عند خط الأفق، حيث كانت السماء تقريبًا بيضاء اللون، تومض بخفوت.

ألقيت بنظرة على الجانب الآخر من الكنيسة، فلفت انتباهي أمر غريب. يصطف على طول السور الحديدي المحيط بباحة المدرسة المغطاة بالأسفلت، عشرون طالبًا أو أكثر، يطل كل طالب فيهم من فتحة في السور. كانوا عبارة عن صفٍّ من الوجوه الكئيبة الشاحبة، وعيون مستديرة واسعة، لا أحدَ يعرف كم مرَّ من الوقت وهم يشاهدون تلك الجنازة، بلا حركة، بينما تتمسك أكفهم بالحديد ويحل عليهم جميعًا صمت تام. لم يبدوا كأطفال عاديين، يملأهم النشاط وهدوء البال، بل كان منظرهم مهيبًا وشجيًا على نحوٍ غريب. التقت عيني بعين أحدهم، فابتسمت، ولكنه لم يبادلني الابتسام.

رأيت أن السيد جيروم ينتظرني بأدبٍ جَمٍّ على الطريق، فاتجهت إليه مسرعًا.

قلت فور وصولي إلى جواره: «أخبرني، تلك المرأة الأخرى... أتمنى أن تتمكن من الوصول إلى بيتها... بدت مريضة بشكل مفزع، مَن هي؟»

قَطّب حاجبيه.

ألححت عليه قائلًا: «الشابة ذات الوجه النحيل، في آخر صف في الكنيسة، ثم في المقبرة على بُعدِ خطواتٍ منَّا».

توقف السيد جيروم مصعوقًا، وحدق فيَّ.

«شابة؟»

«نعم، نعم، بشرتها مشدودة على عظامها، بالكاد احتملت النظر إليها... طويلة القامة، ترتدي قبعة، أظن أنها كانت تحاول المسكينة إخفاء أكبر قدر ممكن من وجهها».

لبعض الثواني، في ذلك الطريق الهادئ الفارغ، في ضوء الشمس، لم يكن سوى صمت يشبه ذلك الصمت الذي لا بُدَّ أنه قد حلَّ الآن في الكنيسة، صمت عميق، حتى إنني سمعت نبضات الدماء في قنوات أذني. تجمد السيد جيروم، شحب لونه، وتحرَّك حلقه كما لو لم يعد يمكنه التكلم.

سألته سريعًا: «هل هناك أمر ما؟ تبدو مريضًا».

تمكن من تحريك رأسه أخيرًا - يمكنني القول بأنه حرَّك جسده كله، كما لو كان يبذل مجهودًا خرافيًا ليستجمع شجاعته بعد صدمة هائلة، ما زال وجهه مصفرًا، لم يَعُد إليه لونه، وطرفا فمه اصطبغا بالأزرق.

قال أخيرًا بصوت خفيض: «لم أرَ أيَّ امرأةٍ شابة».

قلت: «ولكن بالتأكيد...» ثم نظرت إلى الخلف فوق كتفي ناحية باحة الكنيسة، ها هي هناك، لمحت ملابسها السوداء، وحواف قبعتها. لم تكن قد غادرت إذًا، أخفت نفسها وراء إحدى الشجيرات، أو شواهد القبور، أو في ظلال الكنيسة، تنتظر رحيلنا، حتى تقوم بما تقوم به الآن، الوقوف هناك على حافة القبر الذي يرقد فيه جسد السيدة درابلو، تنظر إليه. تساءلت مجددًا عن أي صِلةٍ تربطهما، أي قصة غريبة قد تكون وراء تلك الزيارة السرية، أي حزن بالغ تعاني منه الآن، وحدها هناك. قلت وأنا أشير: «انظر، ها هي هناك مجددًا، ألا يجب أن...» توقفت بينما التقط السيد جيروم معصمي وأمسك به بقبضة قوية مؤلمة، نظرت في وجهه فكان من المؤكد أنه يوشك على الانهيار مغمى عليه، أو السقوط في نوبة تشنج. بدأت بالنظر حولي بعنفٍ، متسائلًا في نفسي عما يجب أن أفعله في هذا الطريق المهجور، أين أذهب، أو لمن أصرخ طالبًا المساعدة. كان رجال تجهيز الموتى قد رحلوا، ولم يكن أمامي سوى مدرسة مملوءة بأطفال صغار، وامرأة مريضة توشك على الموت في حالة إنهاك جسدي وعاطفي، وبجواري رجل في حالة شِبه انهيار. كان الشخص الوحيد الذي يمكنني الوصول إليه هو القس، في مكانٍ ما في استراحة الكنيسة، ولكن لكي أذهب إليه، يجب أن أترك السيد جيروم وحيدًا.

«هل بإمكانك أن تستند على ذراعي يا سيد جيروم، وتترك معصمي من قبضتك قليلًا، إذا سمحت؟ هل بإمكانك المشي لبضع خطوات كي نعود إلى طريق... الكنيسة... أرى مقعدًا هناك، بعد البوابة بقليل، يمكنك الاستراحة عليه لكي تتعافى قليلًا بينما أذهب طلبًا للمساعدة... ربما سيارة...»

قال صارخًا تقريبًا: «لا».

«ولكن يا عزيزي!»

بدأ في أخذ أنفاس عميقة، وعادت إلى وجهه الدماء بالتدريج، قال: «لا، أعتذر منك، أنا آسف للغاية، لا داعي، مجرد إعياء بسيط.. سيكون من الأفضل أن تمشي معي حتى مكتبي في شارع (بن)، بجوار الميدان».

بدا مهتاجًا الآن، قلِقًا، يريد الابتعاد عن الكنيسة ومحيطها.

«إذا كنت متأكدًا...»

«نعم، متأكد جدًّا. تعالَ...» ثم بدأ يمشي مسرعًا أمامي، مسرعًا جدًّا لدرجة فاجأتني، واضطررت إلى الركض وراءه لبضع خطوات كي ألحق به. لم تستغرق الرحلة وصولًا إلى الميدان إلا بضع دقائق قليلًا بتلك السرعة، كان السوق في أوجه، وها نحن مرةً أخرى في غمرة العربات والأصوات الصارخة، الباعة والمشترون وأصحاب الأكشاك، وثغاء ونهيق ونعيق وصياح ونقيق وصهيل عشرات الحيوانات الريفية. في غمرة ذلك المشهد وتلك الأصوات، لاحظت أن السيد جيروم يبدو أفضل حالًا، وحين وصلنا إلى رواق نُزل (جيفورد آرمز) بدا وقد استعاد عافيته بالكامل، فشعرت بدفقة ارتياح.

قلت بعد أن ضغطت عليه كي يتناول معي الغداء، إلا أنه رفض: «أظن أنك ستصحبني إلى منزل (إيل مارش) لاحقًا؟»

اصفرَّ وجهه مرة أخرى، وقال: «لا، لن أذهب إلى هناك، يمكنك العبور إلى هناك في أي وقتٍ بعد الواحدة ظهرًا. سيأتي إليك كيكويك، إنه الوسيط بيننا وبين هذا المكان، أظن أن لديك مفتاحًا؟»

هززت رأسي.

«سأبدأ في فحص أوراق السيدة درابلو، وترتيبها، ولكن أظنّ أنني سأضطر إلى الذهاب إلى هناك مجددًا غدًا، وربما حتى يوم ثالث بعد ذلك. لعلّ بإمكان السيد كيكويك اصطحابي مبكرًا في الصباح، وتركي هناك لبقية اليوم؟ لا بُدَّ أن أعرف الطريق إلى ذلك المكان».

«يجب أن تلتزم بمواعيد المد، سيخبرك كيكويك بذلك».

قلت: «ولكن إذا وجدت أن العمل سيتطلب وقتًا أطول مما توقعت، ربما سأبقى هناك في المنزل؟ هل سيعترض أي شخص على ذلك؟ من غير الملائم أن أتوقع أن ذلك الرجل سيأتي ويذهب من أجلي لكل هذه المرات».

قال السيد جيروم بحذرٍ: «أعتقد أنك ستجد الأمر أكثر راحة هنا».

«نعم، لقد اعتنوا بي عنايةً شديدةً، كما أن الطعام هناك من أفضل ما يكون، ربما أنت على حق».

«أظن ذلك».

«طالما أن ذلك لن يُسبِّب الإزعاج لأي شخص».

«ستجد السيد كيكويك شخصًا ودودًا يحب المساعدة».

«جيد».

«إلا أنه لا يجيد التعامل مع الناس».

ابتسمت قائلًا: «آه، لقد اعتدت على ذلك». ذهبت لتناول وجبة الغداء مع عشرات المزارعين، بعد أن صافحت السيد جيروم.

كان حدثًا مرحًا وصاخبًا. جلس الجميع على ثلاث طاولات كبيرة، مغطاة بأقمشة بيضاء طويلَة، وبدأوا في الحديث أحدهم إلى الآخر عن أمورِ السوق، بصوت مرتفع في كل الاتجاهات، بينما مرت بضع فتيات، يحملن أطباقَ اللحم والخنزير، وأوعية الحساء، وأجران الخضراوات، وأباريق المرق، وأكواب الجعة على صواني عريضة. وعلى الرغم من أنني لم أفكر في أنني لا أعرف أحدًا من الموجودين في الحجرة، إلا أنني شعرت بغربة، خصوصًا في ملابس الجنازة التي أرتديها تلك بين ملابس الصوف والقطيفة التي يرتديها الآخرون، استمتعت بوجودي هناك على أي حالٍ، ويرجع السبب في ذلك جزئيًا إلى التناقض بين هذا الموقف المبتهج، والحدث الذي أثار أعصابي سابقًا في الصباح. دار الحديث بينهم بلغةٍ لا أكاد أفهمها، أشبه بلغة أجنبية، فالكلام كله عن شؤون لا أفهمها، الأوزان والأسعار والحصاد وسلالات الحيوانات المختلفة، ولكني استمتعت بالاستماع على أي حالٍ، بينما أتناول وجبة غداء ممتازة، وعندما مرَّر الشخص الجالس إلى يساري طبقَ جبن (تشيشاير) عملاق وأشار إليَّ بأخذ قطعة، سألته عن المزاد الذي أقيم في النُزل قبل قليلٍ، تجهم وقال:

«لقد سار المزاد وفقًا للتوقعات يا سيدي، هل أفهم من ذلك أنك كنت مهتمًا بشراء الأرض؟»

«لا، لا. الأمر أن مالك النُزل ذكره بالأمس، وفهمت من كلامه أنه حدث مهم».

«لقد بيعت عدة أفدنة، نصف مساحة (هومبري) الواقعة على جانب (كرثين)، وعدة أميال أخرى إلى الشرق أيضًا. يوجد هناك أربعة مزارع».

«وتلك الأراضي هنا ذات قيمة مرتفعة؟»

«بعضها، نعم يا سيدي، فمعظم الأراضي في تلك المنطقة مستنقعات وتربة مالحة، لا يمكن تجفيفها من أجل الزراعة؛ لذلك فالأراضي الخصبة هنا ذات قيمة عالية، كل بوصة منها لها قيمتها. أصيب الكثيرون بالإحباط هذا الصباح».

«هل أنت أحد هؤلاء المحبطين؟»

«أنا؟ لا. أنا راضٍ تمامًا بما أملك، وحتى لو لم أكن، فلن يغير هذا من الوضع شيئًا، فأنا لا أمتلك مالاً كافيًا، بالإضافة إلى أنني رجل عاقل ولن أزايد ضد رجل مثله».

«هل تقصد الرجل الذي نجح في الشراء؟»

«بالضبط».

تتبعت نظرته الخاطفة إلى الطاولة الأخرى. «آه، السيد دايلي». هناك على الطرف البعيد من الطاولة، تعرفت على رفيق رحلة الأمس، ممسكًا بإبريق، ماسحًا الغرفة بعينيه المملوءتين بالرضا.

«هل تعرفه؟»

«لا، قابلته لوقتٍ قصيرٍ، هل هو أحد مُلّاك الأراضي الكبار هنا؟»

«بالضبط».

«ومكروه بسبب ذلك؟»

هز الرجل كتفيه العريضين، ولم يقل شيئًا.

قلت: «حسنًا، إذا كان ذلك الرجل قد اشترى نصف الأراضي هنا، فأظن أنني سأقوم ببعض الأعمال معه قبل نهاية هذا العام، فأنا محام، أعتني بشؤون المرحومة السيدة آليس درابلو، مالكة منزل (إيل مارش)، لا بُدَّ وأن ممتلكاتها ستُعرَض للبيع في الوقت المناسب».

مرت لحظة لم يَقُل فيها الرجل شيئًا، وضع قطعة زبد على شريحة خبز ثم فردَ قطعة جبن عليها بعناية. رأيت أن الساعة المعلَّقة على الحائط المقابل لي، تشير إلى الواحدة والنصف. أردت أن أغيِّر ملابسي قبل أن يصل السيد كيكويك، وحين كنت على وشْكِ الاستئذان والذهاب، تكلَّم الرجل أخيرًا بنبرة محسوبة جيدًا، قال: «أشك في ذلك، فحتى صامويل دايلي لن يتجرأ على ذلك».

«لا أعتقد أنني فهمت تمامًا ما تعنيه. لم أرَ كل ممتلكات السيدة درابلو بعد، أظن أن هناك مزرعة على بُعد بضعة أميال خارج المدينة...»

قال بنبرة رافضة: «(هوجيتس)! خمسون فدانًا ونصف من تلك المزرعة غارق تحت مياه المد معظم السنة. (هوجيتس) لا شيءَ، كما أنها مؤجرة لسنوات أطول من سنوات حياته».

«يوجد أيضًا منزل (إيل مارش) والأراضي المحيطة به - هل تلك الأراضي صالحة للزراعة؟»

«لا يا سيدي».

«حسنًا، ولكن ألا يريد السيد دايلي إضافة المزيد من الممتلكات إلى إمبراطوريته، لمجرد أن يتباهى بها؟ انطوى كلامك على تلميح إلى أنه مِن هؤلاء الرجال».

مسح فمه بمنديله وقال: «ربما هو منهم، ولكن دعني أخبرك بشيء، لن تجد أحدًا، ولا حتى السيد دايلي، يريد الاقتراب من تلك الأراضي».

«هل تسمح لي بالسؤال عن سبب ذلك؟»

تحدثت بحدة، فقد بدأ صبري ينفد بسبب تلك التلميحات والهمهمات الغامضة التي يطلقها رجال بالغون كلما جاء ذِكر السيدة درابلو وممتلكاتها. كنت محقًا، فقد كان هذا المكان من المناطق التي تزخر بالخرافات والقيل والقال، حتى هيمنت على المنطق السليم. الآن، أتوقع أن يهمس المزارع قوي البنية، الجالس على يساري، بأنه سيجيب على سؤالي، ولكن مرةً أخرى، ربما لن يفعل، ربما سيحكي لي الحكاية، إذا أراد... ولكن بدلًا عن الرد على سؤالي، أدار وجهه عني فورًا، وبدأ حديثًا مُعَقدًا مع الشخص الجالس على الجانب الآخر، عن المحاصيل. أثار ذلك الهذيان والغموض، الذي أصبح مألوفًا الآن، أعصابي، فقمت فجأة وتركت الغرفة. غيَّرت ملابس الجنازة، وارتديت ملابس أكثر راحةً، وبعد عشر دقائق، كنت واقفًا على الرصيف في انتظار وصول سيارة، يقودها رجلٌ يدعى كيكويك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٥)

على الجهة الأخرى من السكك الحديدية

لم تظهر أي سيارة، بل تقدمت نحوي خارج نُزُل (جيفورد آرامز)، عربة مهترئة يجرها حصان صغير. لم يكن مشهدًا غريبًا تمامًا في ميدان السوق، فقد لاحظت عددًا من العربات المشابهة هذا الصباح، ربما هي عربة أحد المزارعين أو مربيي الماشية، لذا لم ألقِ لها بالًا واستكملت بحثي عن السيارة التي أنتظرها، إلا أنني سمعت أحدهم يناديني باسمي.

كان الحصان صغير الحجم، يبدو عليه الإعياء، وعلى عينيه عصابة لحمايتهما، وكان السائق يرتدي قبعةً، أنزلها على حاجبيه، ومعطفًا طويلًا بنيًا، فلم يكن يميزه عن العربة التي يقودها شيء، بل أندمج فيها تمامًا. أسعدني المشهد، وجعلني متحمسًا للرحلة، فقفزت إلى العربة بنشاط. لم ينظر كيكويك لي، وبمجرد أن جلست في المقعد، هز لجام الحصان وانطلق باحثًا عن طريق عبر ميدان السوق المزدحم، واتجه إلى الشارع الذي يؤدي إلى الكنيسة. حاولت أن ألقي نظرة على قبر السيدة درابلو بينما نعبر أمام الكنيسة، ولكن بعض شجيرات أخفته عن الأنظار. تذكرت المرأة الهزيلة أيضًا، ورد فعل السيد جيروم حين ذكرتها له، ولكن بعد لحظات قليلة، جذب الحاضر انتباهي، فاستغرقت في فحص محيطي ولم أفكر في الجنازة وما حدثَ بعدها، كنا قد خرجنا إلى الريف المفتوح، وكانت (كرثين جيفورد) تمتد خلفنا، صغيرة ومكتفية بذاتها، كما هي دائمًا. الآن، لا شيء حولي أو فوقي أو على امتداد النظر إلا السماء، السماء وشريط نحيل من الأرض. رأيت تلك البقعة من الأرض، كما كان رسامي المناظر الطبيعية يرون هولندا، أو الريف حول (نورونتش). لم تكن هناك أي غيوم في ذلك النهار، ولكن كان بإمكاني تخيل كيف ستبدو عظمة تلك المنطقة التي تحتضنها السماء الهائلة، في أحد الأيام الرمادية، تحت زخات المطر وغيوم العاصفة وهي تهبط على مصب النهر، كيف سيبدو المكان أثناء فيضانات فبراير حين تتحول المستنقعات إلى الرمادي، وتهطل عليها السماء، كيف ستبدو في رياح مارس حين يتموج الضوء، وتطارد الظلال بعضها عبر الحقول المحروثة.

كان اليوم منعشًا صافيًا، برغم الشمس الهزيلة التي غمرت كل شيء الآن، لقد أصبح الضوء شاحبًا، بعد أن فقدت السماء زرقتها الصباحية البراقة، وأصبحت رمادية تقريبًا. وبينما نتقدم بنشاط عبر الأراضي المسطحة تمامًا، لم أرَ أي أشجار، بل أسوجة من النباتات الداكنة القصيرة. بدت الأراضي المحروثة في البداية غنية بلونها البني، تملؤها خطوط التربة المقلوبة المستقيمة، ولكن مع تقدمنا، تحولت التربة تدريجيًّا إلى حشائش خشنة، وبدأت أرى بِركًا ومصارف مليئة بالمياه، وبعد ذلك بدأنا بالاقتراب من المستنقعات نفسها. امتدت المستنقعات في صمت وسكون، تلمع تحت شمس نوفمبر، في كل اتجاه على امتداد النظر حتى تلتحم بدون أي فاصل مع مياه الخليج، ثم خط الأفق.

دارت رأسي حول هذا الجمال، بهجته، وامتداده العاري العريض، ودفع شعوري بالفضاء واتساع السماء فوقي ومن حولي، بقلبي إلى الانتفاض. كنت أعرف أنني مستعد للسفر ألف ميل من أجل رؤية مكان مثل هذا، مكان لم أتخيل أبدًا وجوده.

كانت الأصوات التي سمعتها بخلاف خبيب حوافر الحصان، ودوران العجلات، وطقطقة أخشاب العربة، ليست سوى صيحات طيور، حادة، غريبة، مفاجئة، بعضها قريب وبعضها بعيد. كنا قد قطعنا حوالي ثلاثة أميال خالية تمامًا من أي مزرعة أو كوخ، لا منازل على الإطلاق، ليس سوى الفراغ. تلاشت بعد ذلك أسيجة النباتات، وبدا الطريق كما لو كان متجهًا إلى حافة العالم. لمعت المياه أمامنا مثل المعدن، ثم بدأتُ ألاحظ طريقًا أشبه بخطٍّ تركَتْه مركب خلفها، يعبر خلال الماء. كلما اقتربنا، كلما لاحظت أن ماءً ضحلًا يغمر الرمال المتموجة على جانبي الطريق، وأن الطريق لم يكن سوى مسارٍ ضَيِّقٍ يتجه مباشرًة إلى الأمام، كأنه يتجه إلى الخليج نفسه. فور وصولنا إلى هذا المسار، أدركت أنه لا بد أن يكون مسار (السبعة أرواح) - بالتأكيد هو بعينه - ورأيت كيف يمكن للمد حين يرتفع أن يغمره بلا أي أثر.

وضع الحصان أقدامه على المسار الرملي أولًا، ثم تبعته العربة، فتوقفت الأصوات التي كانت تصدر عنها، وتقدمنا في صمتٍ تام إلا من صوت ناعم يشبه الهسيس. تناثرت أكوام من البوص الأبيض الشاحب مثل العظام هناك وهناك، ومن حين لآخر، تصدر الرياح وهي تمر على هذا البوص صوت خشخشة جافة. انعكست الشمس التي أصبحت الآن وراء ظهورنا على الماء من حولنا، فالتمع كل شيء مثل سطح المرآة، واصطبغت السماء بلونٍ زَهريٍّ خفيف عند حافتها، فانعكس اللون بدوره على المستنقعات والمياه. ولأن كل شيء لامع جدًّا لدرجة أتعبت عيني، توقفت عن التحديق، ونظرت إلى الأمام، فرأيته، كما لو كان ينبعث من الماء نفسه؛ بيتًا طويلًا ناحلًا، رمادي الحوائط، مائل السقف، يتلألأ مثل الفولاذ في الضوء. انتصب مثل فنار أو منارة أو قلعة بحرية، يواجه الخليج والمستنقعات باتساعهما الهائل. لقد كان موقعه مدهشًا، أكثر مواقع البيوت التي رأيتها إدهاشًا، بل أكثر إدهاشًا من كل المواقع التي يمكنني تخيُّلها، منعزل، عنيد، ولكني أيضًا فكرت، جميل. عندما اقتربنا منه قليلًا، رأيت أن الأرض التي يقف عليها مرتفعة قليلًا، وتحيط به من كل جانب لحوالي ثلاث أو أربع أذرع، مكسوة بحصى وحشائش فقيرة، تجمَّع عليها الملح. امتدت تلك الجزيرة الصغيرة جنوبًا عبر منطقة من الشجيرات والحقول باتجاه ما بدا لي كأطلال كنيسة قديمة.

أصدرت العربة أصواتَ جرش حين وصلت إلى الحصى، ثم توقفت. لقد وصلنا إلى منزل (إيل مارش).

للحظة أو لحظتين، جلست في العربة، أنظر من حولي مندهشًا، لا أسمع شيئًا سوى أنفاس رياح الشتاء الضعيفة التي جاءت من ناحية المستنقعات، وبعض أصوات مفاجئة لطيور مختبئة. شعرت بشعور غريب، انفعال مختلط بتأهب... لم أتمكن من تحديده بالضبط. ولكن من المؤكد أنني شعرت بالوحدة؛ فبرغم وجود كيكويك الصامت والحصان البني النحيل، إلا أنني شعرت كما لو كنت وحدي خارج ذلك

البيت الفارغ الطويل. لم أكن خائفًا، مما قد أخاف في تلك البقعة النادرة الجميلة؟ من صرخات طيور المستنقعات؟ من البوص والمياه الراكدة؟

نزلت من العربة وتقدمت ناحية الرجل.

«إلى متى سيظل الطريق مفتوحًا؟»

«إلى الخامسة عصرًا».

إذًا، ليس بإمكاني سوى التجول في الأرجاء، والتعرف على المنزل، والبدء في البحث عن الأوراق، قبل أن يحل موعد قدومه ليصحبني في طريق العودة. لم أرد أن أرحل عن المكان بتلك السرعة، فقد كنت مسحورًا به، وأردت أن يختفي كيكويك على الفور لكي أتمكن من التجول فيه بحُريَّة وبطءٍ، وامتصاص كل ملامحه من خلال كل حواسي، وحدي. قلت له وقد قررت قرارًا مفاجئًا: «اسمع، سيكون من الحمق أن تقود على هذا الطريق مرتين في اليوم، الأفضل أن أجلب حقائبي وبعض الطعام والشراب، وأبقى هنا لليلتين أو ثلاث. بهذه الطريقة، يمكنني الانتهاء من عملي بكفاءة أكبر بكثير، ولن أتعِبك أيضًا. سأعود معك، إذًا، عصر اليوم، ثم غدًا تأتي بي إلى هنا في الصباح الباكر، في أبكر وقتٍ يسمح به المد».

انتظرت. تساءلت إذا كان سيحاول إثنائي عن قراري، أو مناقشتي فيه، أو صدي عن ذلك المشروع، باستخدام تلك الإشارات الغامضة القديمة. ظلّ يفكر لبعض الوقت، ولكن يبدو أنه لاحظ إصراري على ذلك القرار أخيرًا، فهز رأسه موافقًا.

«أو ربما تنتظرني هنا؟ سيستغرق الأمر بضع ساعات، افعل ما تراه مناسبًا لك».

أجابني ببساطة من خلال شد لجام الحصان، وبدأ في إدارة العربة إلى الجهة الأخرى، وبعد دقائق، كانوا في طريق عودتهم عبر المسار الضيق، تتضاءل أحجامهم أكثر وأكثر في ضخامة واتساع المستنقعات والسماء، استدرت بدوري ومشيت باتجاه مدخل منزل (إيل مارش). وكانت يدي اليسرى تلمس مقبض المفتاح في جيبي.

ولكني لم أدخل، لم أرد أن أدخل لبعض الوقت، بل أردت أن أستمتع بالصمت والغموض والجمال المتلألئ، أن أشم رائحة الملح الغريبة التي تحملها الرياح، أن أستمع إلى الحفيف والخرير. كنت واعيًا بتأهُّب حواسي كلها، ومدركًا أن هذا المكان الاستثنائي يطبع بصمته في عقلي، وفي عمق مخيلتي أيضًا.

فكرت أنه من الأفضل أن أدمن الوحدة والهدوء، بما أنني سأقيم هنا لفترة من الزمن، وأنني يجب أن أصبح مُحبًا لمشاهدة الطيور أيضًا، فالمكان على الأرجح مليء بأنواع الطيور النادرة، طيور ساحلية وطيور مائية، وبط بري وأوز، خصوصًا في الربيع والخريف، وبمساعدة المراجع والنظارات المقربة، سأتمكن قريبًا من التعرف على تلك الأنواع من خلال طريقة تحليقها وأصواتها. بدأت أتخيل حياتي هنا، بينما أتجول حول المنزل، ثم رحت أحلم قليلًا كيف ستكون الحياة هنا مع ستلا، وحدنا في البراري والبقاع المنعزلة - إلا أنني تجاهلت الأسئلة التي تتعلق بما سأفعله هنا لكي أجني مالًا يكفينا، وما سنشغل به أنفسنا من يوم لآخر.

هكذا مشيت مبتعدًا عن المنزل في اتجاه الحقول، سارحًا في الأحلام، ثم عبرت باتجاه الأطلال. كانت الشمس قد بدأت في الانزلاق بعيدًا باتجاه الغرب، وقد أصبحت كرة هائلة حمراء مذهبة، تطلق سهامًا نارية وضربات من اللون الأحمر الدموي على سطح المياه. أما باتجاه الشرق، كان البحر والسماء قد أظلما قليلًا، وأصبح لونهما رماديًا متجانسًا مثل الرصاص، وكانت الريح التي هبَّت فجأة من جهة المستنقعات، باردة.

عندما اقتربت من الأطلال، تبين لي بالفعل أنها لكنيسة قديمة، ربما دير رهبان في الأصل، متداعية ومنهارة، وقد سقطت من حيطانها بعض الصخور والحطام، على الأرجح بسبب العواصف الأخيرة، وتناثرت على الأرض بين الحشائش. كانت الأرض مائلة قليلًا باتجاه ساحل الخليج، وبينما أعبر تحت أحد الأقواس القديمة، فاجأت طائرًا، ففزع وحلَّق فوق رأسي ضاربًا بأجنحته، وصاح صيحة خشنة تردَّد صداها حول الحيطان العتيقة، ثم عادت الصيحة من بعيدٍ. لقد كان طائرًا قبيحًا وشيطانيًا، يُشبِه أحد أنواع النسور البحرية - هل يوجد هذا الكائن؟ - لم أتمكن من منع جسدي من الارتعاش بينما يمر ظله فوقي. شاهدت تحليقه القبيح وهو يبتعد باتجاه البحر، فملأني الارتياح. لاحظت بعد ذلك أن الأرض تحت قدميي والصخور بينهما، يغطيها روث تلك الطيور البغيضة، وخمنت أنها بالتأكيد تعشش داخل الحيطان.

بخلاف ذلك، أحببت المكان إلى حدٍّ كبيرٍ، وتخيلت كيف سيكون في إحدى الليالي الدافئة في منتصف الصيف، حين يهبُ النسيم المنعش من البحر، عابرًا على الحشائش الطويلة، والزهور البرية البيضاء والصفراء تتفتح بين الصخور والحطام، والظلال تطول بلطف، والعصافير تزقزق أجمل أغانيها، على خلفية خرير الماء وانكساره البعيد على الشاطئ.

وجدت نفسي منغمسًا في الخيال، أقف داخل مقبرة صغيرة، تحيط بها بعض الحيطان المتداعية، فوقفت مندهشًا من المشهد. يوجد على الأقل خمسون شاهد قبر، معظمها مائل أو متداعٍ تمامًا وتغطيها أكوام من الطحالب الخضراء المصفرة، وقد شحبت ألوانها بسببِ الرياح المالحة، ولطخت أسطحها سنوات المطر الطويلة. كانت قباب القبور مغطاة بالحشائش أو الأعشاب، وبعضها اختفى تمامًا، وغرق في الأسفل، لم يكن هناك أي أسماء أو تواريخ يمكن قراءتها، وهيمن على المكان جوٌّ من التحلل والإهمال.

أمامي مباشرة، بعد أن انتهى الحائط في كومة من الغبار والحصى، امتدت مياه الخليج الرمادية، وبينما وقفت أتأمل، انطفأت أخر أنوار الشمس، وارتفعت الرياح في شهقة عالية وخشخشت خلال الحشائش. فوق رأسي، جاء ذلك الطائر المريع، صاحب الرقبة الأفعوانية، عائدًا باتجاه الأطلال، ورأيت مخالب قدميه منغرسة في سمكة يائسة، تنتفض وتقاوم بلا أمل. شاهدت الطائر يهبط على قدميه، ثم رأيته يحرِّك بعض الصخور التي اهتزت ثم اختفى في مكان ما بين الحشائش.

أدركت فجأة برودة الجو، وكآبة المكان المخيف، وحلول الظلام في عصر هذا اليوم من شهر نوفمبر، فلم أرِد أن يصيبني الاكتئاب، أو أن أبدأ بالوقوع تحت تأثير كل هذه الخيالات المريعة، فكنت على وشك الذهاب، على وشك المشي سريعًا إلى المنزل حيث نويت أن أشعل نارًا صغيرة للتدفئة، إذا كان ذلك ممكنًا، وأبدأ في عملي على أوراق السيدة درابلو، ولكن قبل أن أستدير، ألقيت بنظرة أخيرة على المقبرة، ومجددًا رأيت الوجه المهترئ، للمرآة التي حضرت جنازة السيدة درابلو. تقف عند الطرف البعيد من المكان، بالقرب من أحد الشواهد القليلة التي ما تزال قائمة، ترتدي ذات الملابس والقبعة، ولكن هذه المرة، كانت القبعة مرتفعة عن وجهها قليلًا، فتمكنت من رؤية ملامحها بشكل أوضح.

كان وجهها في ضوء آخر النهار الرمادي الخافت، يلمع شاحبًا بلمعان العظام الناتئة. في المرات السابقة التي نظرت إليها فيها، على الرغم من أنها لم تكن سوى لمحات سريعة في كل مرة، لم ألحظ أي تعبيرات مميزة على وجهها المنكوب، ولكني وقتها كنت مشدودًا إلى مظاهر المرض الشديد، أما الآن بينما أحدق فيها، حدقت حتى تألمت عيناي في محجريهما، وكنت مندهشًا ومتحيرًا من وجودها، الآن أرى أن وجهها يحمل تعبيرًا، تعبيرًا يمكنني وصفه - على الرغم من أن الكلمات تبدو غير كافية لشرح ما رأيت - كان تعبيرًا يائسًا، ضغينة حاقدة. بدت كما لو كانت تبحث عن شيءٍ سُلبَ منها، تريده، تحتاجه، يجب أن تحصل عليه أكثر من الحياة نفسها، وبكل ما أوتيت من قوة، أخذت توجِّه أفظع مشاعر الشر والكراهية والاحتقار تجاه هذا الذي سلبها إياه. كان وجهها وعيناها، في شحوبهم الشديد، غائرين، يلمعون بشكل غير طبيعي، ويحترقون بكثافة المشاعر الجامحة التي أخذت تتصاعد داخلها ومنها. لم يكن ثمة مجال لمعرفة ما إذا كانت تلك الكراهية والضغينة موجهة إليَّ - لا يوجد أي سبب منطقي يدعوها لكراهيتي، ولكن في تلك اللحظة، كنت أبعد ما يكون عن أن أرتكز في تفكيري على المنطق والعقل، فقد بدأ الخليط الغريب لهذا المكان المنعزل وظهور تلك المرأة المفاجئ وتعبيرات وجهها المرعبة، يملؤني بالخوف. لم أكن قد امتلأت بالخوف هكذا من قبل قَطّ، ولم ترتجف ركبتاي هكذا قَطّ، ولم يقشعر بدني، ولم يتحول إلى قطعة ثلج هكذا قَطّ. لم ينبض قلبي بتلك القوة من قبل، كأنه سيقفز إلى فمي الجاف. بدأ قلبي بعد ذلك ينتفض في صدري كأنه يدق سندان، فلم يكن قد امتلأ أو استولى عليه الرعب والهلع والجزع من الشر هكذا من قبل قَطّ. كنت كما لو أصبحت مشلولًا، لا يمكنني احتمال وجودي هناك، ولا في جسدي بقية قوة يمكنها حملي إلى الاستدارة والركض بعيدًا، وكنت متأكدًا، أكثر من أي شيء آخر في حياتي، من أنني سأسقط في أي لحظة، ميتًا في تلك البقعة الملعونة من الأرض.

كانت المرأة هي من تحرك أولًا، انسلت وراء شاهد القبر، وظلت تمشي في ظل الحائط حتى اختفت عن الأنظار من خلال أحد الشقوق.

في ذات اللحظة التي اختفت فيها، عادت إليَّ أعصابي، عادت قدرتي على الكلام والحركة، إحساسي بالحياة نفسه جاء يفيض خلالي، صفَتْ رأسي تمامًا، وفجأة أصبحت غاضبًا، نعم، غاضب، منها بسبب تلك المشاعر التي أثارتها داخلي،

لتسببها في شعوري بهذا الخوف. تحول الخوف سريعًا إلى إصرار، سأتبعها وأوقفها، وسأسألها بعض الأسئلة وأحصل على إجابات مناسبة، سأصل إلى تفسير كل ما حدث.

ركضت مسرعًا وخفيفًا، عبرت المساحة الصغيرة من العشب القصير بين القبور باتجاه الشق في الحائط، وخرجت منه لأجد نفسي على حافة الخليج. اختفى العشب تحت قدميَّ بعد ذراعين، وامتدت الرمال بعد ذلك حتى المياه الضحلة، امتدت من حولي المستنقعات وأحواض الملح المسطحة حتى امتزجت بمياه المد المرتفع. كان يمكنني أن أرى لأميال أمامي، لم يكن هناك أي أثر لتلك المرأة في الملابس السوداء، ولم يكن هناك أي مكان يمكنها الاختباء فيه.

مَن هي؟ أو ما هي؟ وكيف تمكنت من الاختفاء هكذا؟ لم أسأل نفسي أيًا من تلك الأسئلة، بل حاولت ألا أفكر في الأمر على الإطلاق، وبما تبقى فيَّ من طاقة، كنت أشعر بها تتسرب من جسدي بسرعة، استدرت وركضت، هربت من المقبرة والأطلال، كي أضع أكبر قدر ممكن من المسافة بيني وبين تلك المرأة. ركزت كل طاقتي على الجري، فلم أسمع سوى صوت قدميَّ على العشب، وصوت أنفاسي اللاهثة، ولم أنظر إلى الوراء.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المنزل، كنت قد تبللت تمامًا بالعرق، بسبب المجهود الذي بذلته، وبسبب مشاعري المتطرفة، وارتعشت يدي بينما تمسك بالمفتاح، فسقطت مرتين على السلم قبل أن أتمكن أخيرًا من فتح الباب الأمامي. صفقت الباب فور دخولي، فانفجر الصوت عبر المنزل، وحين تلاشت آخر اهتزازات الصوت، عاد المنزل إلى طبيعته مرة أخرى، وحل الصمت الهائل والمثير للغيظ. لم أتحرك من الصالة المظلمة لوقت طويل، وكنت أرغب في رفقة ما، ولكن لا أحد هنا، وبعد أن أشعلت نورًا وملأني الدفء واستقر في معدتي مشروب قوي، أردت الطمأنينة، ولكن أكثر من أي شيء آخر، أردت تفسيرًا. كم هي عجيبة الكيفية التي يمكن للفضول أن يولِّد بها قوة هائلة داخل الإنسان، لم أدرك ذلك من قبل قَطّ، وعلى الرغم من الخوف الهائل وشعور الصدمة، كنت غارقًا في رغبتي في معرفة مَن تكون تلك المرأة التي رأيتها بالتحديد، وكيف لم أتجرأ على البقاء والتحقق مما حدث، لا يمكنني الارتياح قبل أن أفهم الأمر بالكامل.

لم أكن مؤمنًا بالأشباح، أو بالأحرى لم أكن أؤمن بالأشباح حتى ذلك اليوم، وكنت أرفض كل القصص التي أسمعها عنهم، كما يفعل كل الشباب العاقل، فتلك لم تكن سوى حكايات لا أكثر. يزعم بعض الناس أن لديهم حدسًا خاصًا بتلك الأشياء، وأن بعض الأماكن القديمة مسكونة، بالطبع كنت أسمع مثل تلك القصص، ولكني كنت أشمئز من أي اعتراف بإمكانية وجود حقيقة في تلك الحكايات، حتى لو تمَّ تقديم كل أنواع الأدلة. لطالما فكرت أنه من المثير حقًا أن ذلك الظهور الشبحي وما يشبهه من الأحداث الغريبة، لا يحدث دومًا إلا على بُعد عدة أشخاص، فراوي حكاية الشبح يعرف شخصًا سمع بالحكاية من شخص آخر سمعها بدوره من شخص يعرفه!

ولكن هناك في المستنقعات، رأيت قبل قليل، في ضوء الغروب الشاحب، في عزلة تلك المقبرة، امرأةً، لها جسد بشري، ولكنها أيضًا وفي ذات الوقت، لم أشك للحظة، شبحية. كانت تمتلك ملامح شبحية ممتقعة ومخيفة، وترتدي ملابس قديمة لم يعد أحد يلبسها في الوقت الحاضر، كانت تحافظ على مسافة كبيرة مني دومًا، ولم تُحدِّثني قَطّ. ينبعث من حضورها الصامت الساكن، بجوار قبرٍ في كل مرة أراها، شيء غامض وصلَني بقوة، حتى شعرت باشمئزاز وخوف لا يوصفان. وكانت تظهر وتختفي بطريقة لا يقدر عليها إنسان حقيقي، من لحم ودم... ورغم ذلك، لم تكن تبدو على الهيئة التي أتوقع أن تبدو الأشباح عليها، شفافة وبخارية، بل كانت حقيقية، حقيقية جدًّا، لقد رأيتها هناك، لقد رأيتها بوضوح تام، وأنا متأكد تمامًا أنه كان بإمكاني الذهاب إليها، محادثتها، لمسها.

لم أكن مؤمنًا بالأشباح.

ولكن هل يوجد أي تفسير آخر لما رأيت؟

بدأت ساعة الحائط في أحد أركان المنزل المظلمة، تدق، فأخرجتني دقاتها من أحلامي. هززت جسدي، ثم دفعت بتفكيري بعيدًا عن مسألة المرأة في المقبرة، واتجهت به إلى المنزل الذي كنت أقف فيه الآن.

في صدر الصالة، سلم عريض من خشب البلوط، وعلى جانبها مَمرٌّ يتجه إلى ما ظننت أنه المطبخ وغرفة الغسيل، ويوجد بها أيضًا العديد من الأبواب المغلَقَة جميعًا. أشعلت النور في الصالة، ولكن المصباح كان ضعيفًا للغاية. فكّرت أن من الأفضل أن أفحص جميع الغرف بالترتيب، وأفتح النوافذ كي أسمح لما تبقى من ضوء النهار بالدخول، قبل أن أبدأ في البحث عن أي أوراق.

كان لديَّ الكثير من التخيلات المتوحشة عن حالة منزل السيدة درابلو، بعد ما سمعته من السيد بنتلي ومن آخرين فور وصولي إلى هنا، فكنت أتوقع أن أجده نوعًا من الضريح، ربما، لذكرياتها من الماضي، أو لشبابها، أو لذكرى زواجها الذي لم يستمر إلا لفترة وجيزة، توقعت أن أجده مشابهًا لمنزل الآنسة هافيشام ([1]) المسكينة، أو أن أجده مليئًا بالعناكب والأوساخ، وأكوامٍ الجرائد القديمة والأقمشة والقمامة في كل الأركان، حطام امرأة منعزلة - بصحبة قُطٍّ أو كلب في نصف حالة مجاعة.

ولكن، مع بداية تجولي داخل وخارج الغرف، غرفة الطعام، غرفة الجلوس، غرفة المكتب، غرفة استقبال الضيوف، لم أجد شيئًا دراميًّا أو بغيضًا، على الرغم من وجود رائحة الرطوبة العفنة في كل مكان، وهي رائحة ستنتشر في أي منزل مغلق لفترة من الزمن، خصوصًا في منزل مثل هذا، تحوطه المستنقعات من كل جانب، فكان لا بُدَّ له أن يفوح برائحة عفنة بشكلٍ دائمٍ.

كان الأثاث من طراز قديم، ولكن جيد، صلب، داكن، ومعتَنَى به بشكل معقول، إلا أن الكثير من الغرف لم تكن مستخدمة، أو حتى لم يدخلها أحدٌ لسنواتٍ. ولكن في طرف أحد الممرات الضيقة على جانب الصالة، وجدت غرفة صغيرة، بدا أن شخصًا عاشَ فيها، على الأرجح، كانت السيدة درابلو تقضي معظم أيامها هنا. يوجد

في كل الغرف دولاب زجاجي مليء بالكتب، وبجوار تلك الكتب صور كثيرة، صور شخصية مهترئة، ولوحات زيتية لمنازل قديمة. غاص قلبي في صدري حين وجدت بين المفاتيح التي أعطاها لي السيد بنتلي عددًا من مفاتيح المكاتب وطاولات الكتابة، ووجدت في أدراجها جميعًا، لفافات وصناديق أوراق - رسائل، فواتير، مستندات قانونية، كراسات، مربوطة بشرائط أو خيوط، وقد حال لونها إلى الأصفر بمرور السنوات. بدا لي وكأن السيدة درابلو لم ترمِ أي قطعة ورق أو رسالة في حياتها أبدًا، وبدا واضحًا أن مهمة ترتيب تلك الأوراَق، حتى بأبسط الطرق، أكثر تعقيدًا مما توقعت. قد تكون معظم تلك الأوراق غير مهمة وبلا قيمة، ولكن يجب أن أفحصها جميعًا لمعرفة ذلك على أي حال، وأن أحزم الأشياء التي يجب أن يتعامل معها السيد بنتلي وأرسلها إليه في لندن، قبل أن يعرض التركة للبيع. كان من الواضح أنه لا جدوى من البدء الآن، فقد كان الوقت متأخرًا، وكنت ما أزال متأثرًا بما وقع في المقبرة، فقررت أن أتجول في المنزل، باحثًا في كل غرفة، ولكني لم أجد أي شيء أنيق أو مثير للاهتمام. كان كل ما في المنزل مجردًا من أي لمسة شخصية، الأثاث، الديكور، الزخارف، كأن الشخص الذي جمعها لا يملك أيَّ ذوق أو خصوصية، كان منزلًا مُمِلًا وكئيبًا، وغير مرحب، ولم يكن فيه ما يثير الاندهاش إلا موقعه. كانت النوافذ الطويلة والعريضة في كل الغرف، وتطل كل واحدة منها على زاوية من زوايا المستنقعات والخليج والسماء الضخمة، إلا أن الألوان قد جفَّت وانسلخت منهم الآن، فقد غربت الشمس، وشح النور، ولم يكن هناك أي حركة على الإطلاق، ولا حتى صوت انكسار الموج، ولم يعد بإمكاني التفرقة بين الأرض والمياه والسماء. كل شيء رمادي. تمكنت من فتح كل الستائر، وتمكنت من فتح نافذة أو اثنتين. كانت الرياح قد توقفت تمامًا، ولا صوت إلا خرير بعيد ناعم من مياه المد وهي تزحف متصاعدة. كيف تمكنت امرأة عجوز وحيدة من احتمال الأيام الطويلة والليالي، ليلة بعد ليلة، في مثل هذا المنزل المنعزل، لم أتمكن من تخيل تلك الحياة لسنوات طويلة. كان سيصيبني الجنون لو كنت مكانها - بالتأكيد. عقدت النية أن أعمل كل دقيقة ممكنة بلا توقف، في فحص تلك الأوراق، وأنتهي من الأمر. ولكن، ما زلت أشعر بانجذابٍ غريبٍ إلى تلك المستنقعات الواسعة الموحشة وأنا أنظر إليها من النافذة، لقد كانَ لها جمالًا باهرًا، حتى في تلك اللحظات، في ضوء الشفق الرمادي. لم يكن هناك أي شيء يمكن رؤيته، لأميال وراء أميال، ورغم ذلك، لم أتمكن من التوقف عن النظر. لقد حصلت على كفايتي لهذا اليوم، كفايتي من الوحدة، والصمت ما عدا صوت المياه وأنين الرياح وصرخات الطيور الكئيبة، كفايتي من رتابة اللون الرمادي، كفايتي من كآبة المنزل القديم. كان ما يزال على موعد قدوم كيكويك في عربته، ساعة على الأقل، فقررت أن أتمشى وأضع المكان برمته وراء ظهري. من شأن مشية نشيطة أن تحمسني وتضعني في مزاج جيد، وتفتح شهيتي، وربما حتى إذا سار كل شيء على نحوٍ جيد، يمكنني الوصول إلى (كرثين جيفورد) قبل أن يتحرك كيكويك، فأوفر عليه عناء الرحلة، وإذا لم يحدث ذلك، فسأقابله على الطريق بالتأكيد. كان مسار (السبع أرواح) ما يزال مرئيًا، والطريق برمته يسير في خط مستقيم، ومن المستحيل أن أتوه.

هكذا كنت أفكر بينما أغلق النوافذ والستائر مجددًا، ثم تركت منزل (إيل مارش) لحاله، تغمره أضواء نوفمبر المتناقصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٦)

صوت عربة وحصان

كان كل شيء هادئًا بالخارج، فلم أسمع سوى صوت خطواتي حين بدأت السير بنشاط على الحصى، وحتى ذلك الصوت الوحيد، انخفض أكثر في اللحظة التي بدأت فيها السير على العشب باتجاه مسار (السبع أرواح). عبرت عدة نوارس السماء في طريقها إلى بيوتها. نظرت مرة أو مرتين فوق كتفي، متوقعًا أن ألمح قوام المرأة التي تتبعني، ولكني كنت قد أقنعت نفسي تقريبًا الآن، بوجود حفرة ما أو منحدر في الأراضي الواقعة على الجانب الآخر وراء تلك المقبرة، ربما مسكن منعزل يختبئ بعيدًا عن الأنظار، فتغيرات الضوء في تلك الأماكن يمكنها أن تلعب جميع أنواع الألاعيب والحِيَل، كما أنني لم أخرج فعلًا إلى هناك، على أي حالٍ، ولم أبحث عن مكان اختبائها، بل اكتفيت بالنظر من حولي ولم أرَ شيئًا. حسنًا، إذًا. سمحت لنفسي في تلك الأثناء أن أتناسى رد فعل السيد جيروم حين ذكرت له تلك المرأة في الصباح.

كانت الأرض ما تزال جافة تحت قدمي على مسار (السبع أرواح)، ولكني رأيت على يساري أن المياه قد بدأت بالاقتراب، بصمت تام وبطء شديد. تساءلت في نفسي كم ترتفع المياه فوق المسار حين يغمره المد، ولكن حتى في ليلة هادئة مثل تلك، كنت ما أزال أحتاج إلى الكثير من الوقت كي أتمكن من العبور بأمان؛ فالمسافة ستأخذ وقتًا أطول الآن، بما أني أسير على قدمي، وليس كما كانت صباحًا حين عبرناها مسرعين في عربة كيكويك. بدت نهاية المسار وكأنها تتباعد أمامي في الجو الرمادي. لم يحدث من قبل أن صرت وحدي إلى تلك الدرجة، أو شعرت بضآلة حجمي وعدم أهميتي مقارنةً بضخامة المشهد أمامي قَطّ، وبدأت بالتأمل الذي لم يكن شيئًا سيئًا على أي حالٍ، وانغمست في أفكاري الفلسفية مصدومًا بلا مبالاة السماء والمياه تجاه وجودي.

بعد مرور بضع دقائق، لا أعرف كم دقيقة بالتحديد، خرجت من أحلامي، لأدرك أنني لم أعد أتمكن من الرؤية بوضوح لمسافة بعيدة أمامي، وحين استدرت للخلف، أفزعني أن أجد منزل (إيل مارش) غير مرئي أيضًا، ليس لأن ظلام المساء قد حلَّ، ولكن لأن ضبابًا كثيفًا جاء زاحفًا فوق المستنقعات وأحاط بكل شيء، أحاط بي وبالمنزل من ورائي وبنهاية المسار وبالريف كله أمامي. كان الضباب أشبه بشبكة عنكبوتية رطبة وملتصقة، رقيق جدًّا ولكن لا يمكن اختراقه في ذات الوقت، ويختلف طعمه ورائحته عن ضباب لندن الأصفر القذر، فضباب لندن خانق وغليظ وساكن، أما هذا فيملأ الفم بالملوحة، شاحب وخفيف، يتحرك أمام عيني طوال الوقت. شعرت بالارتباك، وضايقني وجوده كما لو كان مصنوعًا من ملايين الكائنات الحية التي تزحف عليَّ، تتعلق بي، ثم تذهب بعيدًا. كان شعري ووجهي وأكمام معطفي قد ابتلوا تمامًا بطبقة من الرطوبة، وفوق كل ذلك، كان إدراكي المفاجئ لكل ذلك هو ما أقلقني وأربكني.

أكملت السير لوقت قصير، مصممًا على الالتزام بمساري حتى أصل إلى أمان الطريق الريفي، ولكني بدأت أستوعب أنني على الأرجح سأفقد طريقي بسهولة شديدة، بمجرد أن أنحرف عن ذلك المسار المستقيم، وأنني قد أظل أتجول بلا هدف طوال الليل حتى أفقد طاقتي. كان القرار العقلاني الواضح هو أن أتقفى أثر خطواتي للمسافة القصيرة التي قطعتها، وأنتظر في المنزل حتى يرتفع الضباب، أو يأتي كيكويك ليصحبني، أو كليهما.

كانت تلك العودة كابوسًا؛ اضطررت أن أحسب خطواتي، خطوة خطوة، خوفًا من الانجراف بعيدًا في المستنقعات، ومن بعدها البحر المرتفع. وكلما رفعت نظري أو نظرت من حولي، تصيبني الحيرة على الفور بسبب حركة الضباب المتغيرة، فتحسست خطواتي متعثرًا، داعيًا أن أصل إلى المنزل الذي كان أبعد مما تخيلت. ثم سمعت صوتًا أثلَجَ صدري، قادمًا من مكانٍ ما في ظُلمة الضباب الزاحف، كان صوتًا جليًا لوقع حوافر الحصان وطقطقة حركة العربة. إذًا، لم يمنع الضباب كيكويك الذي اعتاد السفر على الطرق، فعبر مسار (السبعة أرواح) في الظلام، توقفتُ وانتظرت رؤية مصباحه - لا بُدَّ أنه يحمل واحدًا - وتساءلت هل أنادي عليه كي أُعلِمه بوجودي، فلا أظهر في طريقه فجأة، فيصدمني ويلقي بي في مجرى المياه.

أدركت بعد ذلك أن الضباب يتلاعب بالأصوات كما يتلاعب بالرؤية، فضجيج العربة لم يبقَ بعيدًا عني لأطول مما توقعت فقط، بل بدا كما لو أنه لا يأتي من خلفي مباشرةً على استقامة المسار، إنما جاء من جهة اليمين، بعيدًا في المستنقعات. حاولت أن أحدد اتجاه الرياح، ولكن لم يكن هناك أية رياح، فاستدرت، ولكن بدأ الصوت في الابتعاد مرةً أخرى. وقفت منتظرًا في دهشتي، أستمع بتركيز خلال الضباب. ما سمعته بعد ذلك جمَّد الدم في عروقي، انتفضت رعبًا، ولم أتمكن من فهمه أو التعرف على سببه. كان صوت العربة قد تضاءل حتى توقف فجأة، وجاء مكانه صوتٌ بعيدٌ من المستنقعات، صوت شفط، امتصاص، تجفيف، واستمر في المجيءِ حتى أثار فضولي، مختلطًا بصوت صهيل حاد لحصان مذعور، ثم سمعت صرخةً أخرى، شهقة مرعبة، لم أتمكن من تفسيرها، ولكني أدركت مذعورًا أن صاحب الصرخة طفلٌ، طفلٌ صغير. وقفت بلا حيلة هناك في الضباب الذي حاوطني، وأحاط بكل شيء فأخفاه عن ناظري، كنت على وشْكِ النحيب من شدة الخوف واليأس، وأدركت بلا أدنى شك، أنني أستمع إلى أصوات حصان مريعة، وعربة تحمل طفلًا، بالإضافة إلى شخصٍ بالغٍ، افترضت أنه كيكويك، يقود العربة في معاناة يائسة. لقد انحرفت العربة بطريقة ما عن المسار، وسقطت في المستنقع الذي بدأت رماله المتحركة بسحبها داخله، تساعدها سحبة المد القادم.

صرخت حتى ظننت أن رئتي ستنفجر، ثم ركضت إلى الأمام، ولكني توقفت بعد ذلك، لأنني لم أتمكن من رؤية أي شيء ولم يكن هناك أي فائدة من وراء هذا الركض، ليس باستطاعتي الدخول إلى المستنقع، وحتى لو استطعت، لا توجد أي فرصة لإيجاد العربة ومساعدة من فيها، ولن ينتج عن ذلك إلا أن أخاطر بأن يسحبني المستنقع بكل تأكيد. لم يكن هناك حلًا إلا العودة إلى منزل (إيل مارش)،

وإشعال كل الأضواء، كل المصابيح، وأن أحاول بطريقة ما أن أشير بها من النوافذ، آملًا أن يراها أحدٌ في أيِّ مكانٍ من الريف المحيط مثل فنار، على الرغم من لا معقولية حدوث ذلك.

انتفض عقلي بالأفكار المريعة التي أخذت تركض فيه، وبالصور التي لم أتمكن من التوقف عن تخيلها، عن تلك الكائنات البائسة وهي تختنق ببطءٍ وتغرق في الطين والماء حتى الموت، نسيت مخاوفي وخيالاتي العصبية التي اجتاحتني قبل قليل، وركزت في الوصول بأمانٍ إلى المنزل بأسرع ما يمكن. تعلو المياه الآن بقرب حافة المسار، إلا أنني لم أتمكن سوى من سماعها، لأن الضباب ما يزال كثيفًا ولأن الظلمة قد حلَّت بالكامل، وبشهقة ارتياح، شعرت بالعشب تحت قدمي، ثم الحصى، فتحسست طريقي في عمى الظلام متجهًا إلى باب المنزل.

خلفي في المستنقعات، كان كل شيء ساكنًا وصامتًا، إلا من حركة المياه، ولا أثر للعربة والحصان، كأن لم يكن لهما وجود أساسًا.

فور دخولي إلى المنزل مرة أخرى، تمكنت من الوصول إلى كرسي في الصالة المظلمة، وجلست عليه، ثنيت ساقي أسفلي فوق الكرسي، ووضعت رأسي بين كفيَّ، ثم تركت العنان لشهقات البكاء اليائس، وقد تغلب عليَّ إدراكي الكامل لما قد حدث للتو.

كم من الوقت مرَّ عليَّ في جلوسي هناك، في أقصى اليأس والخوف؟ لا أعلم. ولكن بعد مدة، تمكنت من السيطرة على مشاعري بالقدر الكافي كي أقوم وأتجول في المنزل مُشعِلًا كل المصابيح التي تمكنت من إشعالها، وتركتهم جميعًا مُضائين، على الرغم من أنه لم يكن بينهم أي مصباح قوي كفاية، وعلى الرغم من أنني كنت أعرف في صميم قلبي، أن ضوءًا خافتًا من عدة مصابيح متناثرة، لن يكون مرئيًا في الضباب عبر مساحات شاسعة من الأراضي، وأن فرصة وجود مسافر قريب أو أن يرى أي شخص ذلك الضوء، ضئيلة جدًّا. ولكني قمت بواجبي، هذا هو كل ما يمكنني فعله بالتأكيد، فشعرت بتحسُّن طفيف جدًّا بسبب ذلك. بدأت بعد برهة في البحث في دواليب الأكواب والصحون، وطاولات وخزانة المطبخ، حتى وجدت أخيرًا في قعر أحد الدواليب في غرفة الطعام، زجاجة براندي، كان عمر الزجاجة ثلاثين عامًا، وما تزال مُحكَمة الغَلْق، لم تُفتح قَطّ. فتحت الزجاجة، وصببت في إحدى الكؤوس التي وجدتها، أكبر كمية يمكن لشخص في حالة صدمة تناولها، شخص تفصله عن وجبته الأخيرة ساعات قليلة.

بدا واضحًا أن السيدة درابلو لم تستخدم تلك الغرفة لسنوات طويلة، فقد كان الأثاث باهتًا بسبب الهواء المالح، كما كانت فضة قناديل الشموع وحوامل الأطباق باهتة، ومفارش الطاولات متجمدة ومتشابكة مع قطع قماش أصفر، والزجاج وأدوات الطعام مكسوة بالغبار.

عدت إلى الغرفة الوحيدة في المنزل التي تمتلك الحد الأدنى من مقومات الراحة، على الرغم من أنها باردة وتملؤها رائحة عفونة، رشفت من كأس البراندي في

غرفة الجلوس الصغيرة تلك، وحاولت بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الهدوء أن أفكر فيما يجب عليَّ فعله.

ولكن حين بدأ تأثير الشراب، أصبحت أكثر توترًا، لا أقل، وأصبح عقلي في حالة اضطراب شديدة. بدأت أشعر بالغضب تجاه السيد بنتلي لإرسالي إلى هنا، وتجاه غبائي الشديد وتحجر رأسي في تجاهل الإشارات والتحذيرات المتوارية التي استقبلتها حول هذا المكان، وبدأت في التوق إلى - لا، بل الصلاة من أجل - خلاص سريع من تلك المهمة، والعودة إلى أمان وصخب ونشاط لندن المريح، أن أكون بين الأصدقاء، بل بين أيّ بشرٍ على الإطلاق، وأن أكون مع ستلا.

لم أتمكن من الجلوس ساكنًا في ذلك المنزل الخانق القديم، ذلك المنزل المثير لشعورٍ غريبٍ بالفراغ في نفس الوقت، فقمت أتسكع من غرفة إلى أخرى، أرفع هذا الشيء أو ذلك من موقعه، ثم أعيده مكانه مجددًا، وقد ملأني اليأس، ثم صعدت إلى أعلى لأتجول في غرف النوم المتفرقة، ثم صعدت مرةً أخرى إلى غرفة العلية المملوءة بقطع الخشب، بدون أي سجاد أو ستائر على نوافذها الطويلة الضيقة.

فتحت كل الأبواب، ودخلت كل غرفة، الغرفات مُرتبة ومملوءة بالغبار، ورطبة شديدة البرودة، وخانقة على نحوٍ غريبٍ. باب واحد فقط مغلق، في آخر ممر طويل يحتوي على ثلاث غرف نوم في الطابق الثاني، لم يكن في الباب مكان لمفتاح، ولا يوجد عليه قفل.

لسبب ما غامض، شعرت بالغضب تجاه الباب، ركلته، وحاولت فتح مقبضه بالقوة، ثم استسلمت فجأة، وعدت إلى الأسفل، وأنا أستمع إلى صدى خطواتي على الأرض.

كل عدة دقائق، أتجه إلى إحدى النوافذ، أستند على إطارها وأطلُّ محاولًا رؤية الخارج، ولكن رغم أنني تمكنت من مسح الكثير من طبقات الغبار النحيلة عن إطارات النوافذ، حتى كدت أن أترك المكان نظيفًا، لم أتمكن من مسح ستارة الضباب القريبة جدًّا من الزجاج على الجهة الخارجية. وبينما أحدق في الضباب، رأيت أنه ما زال يتحرك باستمرار، مثل السُّحُب، ولكنه لم ينقشع أبدًا أو يختفي.

أخيرًا، هويت على أريكة يغطيها قماش من القطيفة، تحت السقف العالي لغرفة استقبال الضيوف الهائلة. أدرت وجهي بعيدًا عن النافذة، واستسلمت، بصحبة ما تبقى في الكأس الثاني من البراندي اللطيف، إلى تنامي الكآبة داخلي ونوع من الشفقة على نفسي والتأمل الذاتي. لم أعد أشعر بالبرد أو الخوف أو القلق، بل شعرت وكأني داخل شرنقة تَحوُل بيني وبين الأحداث الرهيبة التي وقعت في الخارج في المستنقعات، وسمحت لنفسي بالاستسلام، بالانزلاق إلى حالة من الطيش، حالة من البدائية الشبيهة بذلك الضباب في الخارج، وهكذا على تلك الأريكة، سمحت لنفسي بالاسترخاء، بالسقوط، بإيجاد - ليس السلام بالتأكيد ولكن على الأقل - حالة معينة من الراحة في مَنْع نفسي من الشعور بأي مشاعر متطرفة.

دق جرس، دق في أذني، داخل رأسي، سمعت اهتزازَه قريبًا جدًّا، وبعيدًا جدًّا في ذات الوقت، كان الجرس كأنه يتمايل، وكنت أتمايل معه. كنت أقاوم من أجل الخروج من الظلام الذي لم يكن ثابتًا بل متحركًا حولي، كما كانت الأرض تتحرك تحت قدمي، حتى إنني خشيت أن أنزلق وأسقط إلى الأسفل، إلى الأسفل، أن تسحبني الدوامة الرهيبة التي يتردد صداها. استمر الجرس في الرنين. استيقظت مذعورًا، ورأيت ضوءَ القمر، كان القمر كبيرًا مثل يقطينة في السماء السوداء الصافية خلف النافذة الطويلة.

كان رأسي ثقيلٌ، وفمي جافًا كأنه محشو بالفرو، وأطرافي متصلبة. كنت قد نمت لدقائق، أو ربما لساعاتٍ، لم يعد لدي أيُّ شعور بالزمن. كافحت كي أعتدل في الأريكة، ثم أدركت أن الجرس الذي سمعته لم يكن جزءًا من ارتباك الكابوس المتقطع الذي رأيته، بل جرسًا حقيقيًّا يرن خلال المنزل. كان أحدهم يدق جرس الباب الأمامي.

في طريقي خارجًا من الغرفة إلى الصالة، أحاول ضبط خطواتي بين السير والتعثر، بسبب تخدُّر ساقي التي ثنيتها تحتي على الأريكة، شعرت بالخوف يحكم قبضته على صدري بينما أستعيد ذاكرتي، وخاصةً حين بدأت أتذكر أمرَ العربة والحصان، وصرخات الطفل التي سمعتها قبل وصولي إلى (إيل مارش). كانت كل المصابيح التي تركتها مشتعلة ما تزال تلمع بالخارج، فظننت أنه من المؤكد قد رآها أحدهم. جذبت الباب الأمامي آملًا، رغم استحالة الأمل في تلك الظروف، أن أرى مجموعة من الرجال الأقوياء، جاءوا بحثًا عني لتقديم المساعدة، مجموعة يمكنني الوثوق بها، يعرفون ما يجب عليهم فعله، والأهم، يعرفون كيف يصحبونني بعيدًا عن ذلك المكان.

ولكن، ها هو، على الحصى أمام المدخل، وقف شخص واحد - كيكويك، في ضوء الصالة الذي لمع بريقه بالخارج، وفي ضوء البدر أيضًا، ورأيت خلفه العربة والحصان. بدا كل شيءٍ حقيقيًا جدًّا، عاديًّا جدًّا، ولا أثر لأي خطر أو إصابة. كان الجو صافيًا وباردًا، والسماء تملؤها النجوم، وامتدت المستنقعات ساكنةً وصامتةً، تلمع كالفضة تحت ضوء القمر. لا أثر للضباب أو الغيوم، ليس إلا مسحة رطوبة عالقة في الجو، لقد تغيَّر كل شيء، تغيَّر بالكامل، كما لو أنني وُلدت في عالم آخر، ولم يكن ما حدث سوى حُلمٍ محموم.

قال كيكويك كأنه يردِّد حقيقةً مطلقةً: «لا بُدَّ أن تنتظر حتى يصفو هياج كهذا، لا يمكن العبور إلى الجهة الأخرى أثناء مثل ذلك الهياج. لسوء حظك، كان ذلك اهتياجًا شديدًا».

بدا لساني ملتصقًا بسقف حلقي بشدة، وركبتاي على وشك الانهيار تحتي. نظر حوله ثم قال: «وأيضًا، يجب انتظار المد على أي حال، مكان غريب، ستكتشف ذلك بنفسك قريبًا».

تمكنت في تلك اللحظة من النظر إلى ساعة يدي، فرأيت أنها كانت الثانية بعد منتصف الليل. كان المد قد بدأ في الانحسار مجددًا، كاشفًا عن مسار (السبع

أرواح). كنت قد نِمتَ لسبع ساعات تقريبًا، تقريبًا نفس المدة التي أنامها عادةَ في الليالي العادية، إلا أنني استيقظت قبل الفجر بساعات طويلة، شعرت بإرهاق وقلق شخص تمدَّد بلا نوم لساعات. تمكنت من التلعثم قائلًا: «لم أتوقع مجيئك في تلك الساعة المتأخرة، كم هذا أمرٌ طيبٌ منك».

دفع كيكويك بقبعته قليلًا إلى الوراء كي يحك جبهته، فلاحظت أن أنفه ومعظم النصف الأسفل من وجهه، تغطيهما الحبوب والبثور، وأن بشرته تشبه البليلة، داكنة ومهتاجة بالحمرة. قال أخيرًا: «لم أكن لأتركك الليلة بكاملها، لم أكن لأفعل ذلك».

شعرت بالدوار للحظة، بسبب ذلك الحوار العادي الذي بدأ يدور بيننا، كان حوارًا عمليًّا، إلا أنني كنت سعيدًا برؤيته بالطبع، كما لم أكن سعيدًا من قبل أبدًا برؤية أي بَشَري، وبرؤية عربته الصغيرة الصلبة التي وقفت قريبًا في صبرٍ وهدوءٍ.

ولكن حين عادت إليَّ الذكرى الثانية، اندفعت قائلًا: «ولكن ماذا حدث لك؟ كيف تمكنت من الوصول إلى هنا؟ - كيف تمكنت من الخروج؟» ثم انتفض قلبي حين أدركت أنه لم يكن كيكويك بالطبع، ولم تكن عربته التي سحبَتْها الرمال المتحركة، لم يكن هو على الإطلاق، ولكن شخص آخر، شخص معه طفل، والآن، لقد رحلا، ماتا، لقد أخذهما المستنقع وأغلق عليهما ماءه، ولم يعد يظهر على سطحه اللامع أيُّ أثر، أي ترقرق أو تحرُّك على الإطلاق. ولكن مَن يكونان، مَن؟ مَن قد يخرج في ليلةٍ من ليالي نوفمبر المظلمة، يتدحرج في الضباب والمد المرتفع، مَن كان يقود عربته، وبصحبة طفل أيضًا، في هذا المكان الملعون، ولأي سبب؟ إلى أين كانا ذاهبين؟ ومِن أين جاءا؟ - ليس ثمة أي منازل غير هذا المنزل على مسافة أميال طويلة، إلا إذا كنت مُحِقًّا بشأن المرأة في الملابس السوداء ومسكنها الخفي.

كان كيكويك ينظر مباشرةً في وجهي، فأدركت أنني من المؤكد أبدو أشعثَ متوحشًا، وليس محاميًا شابًا واثقًا في نفسه، لم أكن ذات الشخص الذي تركه في هذا المنزل في عصر اليوم الماضي. أشار إلى العربة وقال: «من الأفضل أن تصعد الآن».

«نعم... ولكن بالتأكيد...»

كان قد استدار فجأة، وبدأ في الصعود إلى مقعد القيادة. وهناك، جلس ينتظرني وهو ينظر أمامه مباشرةً، وقد أحكم معطفه الكبير حول جسده، ورفع ياقته ليغطي رقبته وذقنه. كان على دراية تامة بحالتي، يعرف أن أمرًا ما قد حدث لي، ولكنه لم يكن متفاجئًا على الإطلاق، بل هادئًا تمامًا، كما أن تعامله معي، أوضح لي بلا أي مجال للشك، أنه لا يرغب في سماع ما حدث، لا يريد إلقاء الأسئلة، ولا يريد الإجابة عن أي أسئلة، أو مناقشة الأمر بأي حالٍ. سيصحبني ويحمل أمتعتي في أي وقت، فقط، ولن يفعل أكثر من ذلك.

عُدت مسرعًا في صمتٍ إلى داخل المنزل، وأطفأت جميع الأنوار، ثم صعدت إلى العربة وتركت كيكويك وحصانه يأخذانني بعيدًا، عبر المستنقعات الهادئة والجميلة على نحوٍ مخيفٍ، تحت ضوء القمر. دخلت في حالة إغماء من نوعٍ ما، نصف نائم،

نصف مستيقظ، تهزني حركة العربة، وكان رأسي قد بدأ يؤلمني بقوة، ومعدتي تتشنج من حين لآخر بنوبات الغثيان. لم أنظر من حولي، ولكني كنت ألتفت من حين لآخر ناحية قبة سماء الليل، وأبراج النجوم المتناثرة فيها، كان مشهدًا مريحًا ومهدِّئًا، وبدا كل شيء في السماوات صحيحًا لم يطرأ عليه تغيير، على العكس من كل شيء آخر، داخلي ومن حولي. أدرك الآن أنني قد دخلت نطاقًا لا يمكن تخيله، أو الاعتقاد في وجوده أصلًا، نطاق الوعي بأن مجيئي إلى هذا المكان قد غيَّرني بالفعل، ولا مجال للرجوع عن ذلك. فاليوم، رأيت، وسمعت أيضًا، أمورًا لم أحلم أني سأراها أو أسمعها. كانت تلك المرأة بجوار القبور كائنًا شبحيًا، أنا الآن أعتقد - لا، لست أعتقد، بل أعرف ذلك يقينًا، لقد ترسَّخَ اليقين بتلك الحقيقة داخلي، وأدرك الآن أن تلك الحقيقة قد ثبتت داخلي، لا تتزعزع، أثناء نومي المؤلم المضطرب. بدأت أشك في أن العربة والحصان اللذين سمعتهما في المستنقعات وفقدتهما في وسط الضباب المفاجئ، تلك العربة وذلك الحصان، ومعهما الطفل الذي صرخَ صراخًا رهيبًا بينما تسحبهم الرمال المتحركة، لم يكونوا حقيقيين مطلقًا، لم يُوجَدوا، لم يكونوا، ليسوا من لحم ودم وأشياء ملموسة، بل كائنات شبحية أيضًا، يختبئون في المستنقعات والخليج، في الأرض والسماء. ما سمعته هناك، سمعته بالفعل، سمعته بوضوح كما أسمع الآن حركة العربة وضربات حوافر الحصان، وما رأيته هناك - المرأة ذات الوجه الشاحب المهترئ بجوار قبر السيدة درابلو، ومرة أخرى في المقبرة القديمة - رأيتها بالفعل. كنت مستعدًا للقسم على ذلك يمينًا عظيمًا، كنت مستعدًا للشهادة بما رأيت، ورغم ذلك، بدت تلك الأشياء كلها، على نحوٍ لا أفهمه، أشياء غير حقيقية، شبحية، أشياء ميتة.

شعرت براحة فور أن قبلت بتلك الأمور، وهكذا تركنا المستنقعات والخليج وراءنا، وسرنا بمحاذاة الطريق في منتصف تلك الليلة الهادئة. كنت أعرف أن بإمكاني إيقاظ مالك نُزل (جيفورد آرمز)، كي يدخلني، فقد كنت أنوي الذهاب إلى ذلك السرير المريح والنوم مرةً أخرى، وأن أحاول أن أبعد تلك الأفكار عن ذهني وقلبي، وألا أفكر فيها أكثر من ذلك. غدًا، في ضوء النهار، سأستعيد توازني، وسأخطط بعد ذلك ما الذي سأفعله، فقد كنت متأكدًا في تلك اللحظة أكثر من أي شيء آخر، أنني لا أريد العودة إلى (إيل مارش)، وأنني يجب أن أجد طريقة لتخليص نفسي من أي تعامُل آخر مع شؤون السيدة درابلو. لم أقرر أو أفكر في الطريقة التي سأخرج بها من تلك المهمة، هل أعتذر من السيد بنتلي دون إخباره بشيء، أو أغامر بإخباره بالحقيقة على أمل ألا يسخر مني؟

لم أفكر فيما فعله كيكويك إلا حين بدأت أستعد للنوم. كان مالك النُزل قد أظهر كرمًا وتعاطفًا تجاهي، وها أنا في غرفتي أستعد للنوم، حين فكرت في سخاء كيكويك الشديد، لقد تحرك فور أن سمح له الضباب والمد بالتحرك، وجاءني، بالطبع لم أكن أتوقع منه سوى أن يهز كتفيه لا مباليًا، ويخلد إلى النوم مؤجلًا مهمة إعادتي إلى الصباح، لا بُدَّ أنه ظلَّ مستيقظًا، وربما أيضًا أبقى حصانه مربوطًا بالعربة، قلقًا عليَّ، ورغبةً منه ألا أقضي الليلة وحدي في ذلك المنزل. كنت ممتنًا من صميم

قلبي، وسجلت في مفكرتي أنني يجب أن أمنحه مكافأة سخية لقاء ما تجشمه من عناء.

كانت الساعة تشير إلى ما بَعد الثالثة فجرًا حين استلقيت في السرير، ولم يكن النهار سيطلع قبل خمس ساعات أخرى. كان مالك النُزل قد أخبرني أن بإمكاني الاستيقاظ في أيِّ وقتٍ أريد، وأن لا أحد سيزعجني، وأنهم سيجهزون إفطاري وقتما أطلبه. بدا مالك النُزل قلقًا عليَّ مثل كيكويك، ولكن على نحوٍ مختلف، وعلى الرغم من أن كليهما كانا متحفظين بشدة، ووضعا حاجزًا أمام كل أسئلتي، لم أحاول أن أكسر ذلك الحاجز، مَن يعرف ما الذي رآه أو سمعه هذان الاثنان بأنفسهما، وما الذي يعرفانه عن الماضي وعن تلك الأحداث، بالإضافة طبعًا إلى الشائعات والنميمة والخرافات حولها؟، لم أتمكن من التخمين، فقد كان ما مررت به أكثر من كافٍ، ولم أرغب في الغوص أعمق بحثًا عن أي تفسير.

هكذا كنت أفكر إذًا في تلك الليلة، حين وضعت رأسي على الوسادة الناعمة، ثم رحت في نوم مضطرب، نوم تملأه الظلال والأشكال، التي عبرت في خيالي جيئةً وذهابًا، فأزعجتني حتى استيقظت مرة أو مرتين وأنا أصرخ وأتفوه بكلمات غير مفهومة. تصببت عرقًا، واستدرت، واستدرت في السرير، محاولًا تحرير نفسي من الكوابيس، الهروب من شعوري الواعي تمامًا بالارتعاد والتوجس، بينما يتردد ويتردد ويخترق سطح أحلامي طوال الوقت، صهيل الحصان المرعب، وصرخات الطفل ونداءاته، وأنا أقف في الضباب، بلا حيلة، لا أقوى على تحريك قدمي، وجسدي يقاوم كل محاولاتي للتحرك، وفي الخلف حامت المرأة، تلك المرأة، التي لم أتمكن من رؤيتها في تلك اللحظة بسبب الظلام، ولكني شعرت بحضورها المخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٧)

السيد جيروم يرتعد

عندما استيقظت، وجدت نفسي في الغرفة المريحة مرة أخرى، تملؤها أضواء شمس الشتاء البرَّاقة، ولكني شرعت في مقارنة حالي الآن بحالي في صباح اليوم السابق، كيف نمت جيدًا واستيقظت منتعشًا، وكيف انتفضت خارجًا من السرير، مملوءًا بالحماس لكي أبدأ اليوم! فملأني شعورٌ هائلٌ بالحقد والضجر. هل كان كل هذا بالأمس فقط؟ شعرت وكأنني قد سافرت بعيدًا، ليس في الزمن، ولكن في روحي، أزعجني تذكُّر كيف كنت بالأمس، كيف كنت مستقرًا وهادئًا، حتى إن أعوامًا طويلة من الممكن أن تكون قد مرت منذ الأمس. أشعر الآن بالتعب والإرهاق، ورأسي ثقيل بالإجهاد والانزعاج، وأعصابي وعقلي على حافة السقوط.

ولكن بعد برهة، دفعت نفسي إلى القيام، فليس من الممكن أن أشعر بأسوأ مما شعرت به في السرير، كنت قلقًا وغير مرتاح مثل كومة من أكياس البطاطس. وفور أن فتحت الستائر على السماء، وغمرت نفسي بحدة زرقتها، ثم بحمَّام ماءٍ ساخن، وغسلت رأسي وعنقي بماء بارد، بدأ شعوري بالكآبة والعفن يقل، وحلَّ مكانه شعورٌ بالاتزان والقدرة على التفكير بشكل منظم في اليوم الذي يمتد أمامي. أثناء الإفطار، شعرت بشهية أكبر مما توقعت، وبدأت في وضع الاحتمالات المختلفة أمامي. بالأمس، كنت قد قررت بإصرار، دون أن أفكر في أي احتمال للتراجع - لم أعد أطيق منزل (إيل مارش)، ولم أعد أرغب في أن تكون لي أي علاقة بشؤون السيدة درابلو، سأرسل للسيد بنتلي تليجرافًا وأترك الأمر بيد السيد جيروم، واستقل أول قطار إلى لندن.

باختصار، كنت سأهرب. نعم، كان ذلك كيف رأيت الأمور في ضوء النهار الصافي، ولم ألُم نفسي على هذا القرار. كنت مرتعدًا إلى أقصى درجات الارتعاد التي يعرفها الإنسان، على الرغم من أنني لم أكن أتصور أنني الشخص الذي قد يهرب من المخاطر والأخطار، إلا أنني لم أتصوَّر نفسي شجاعًا على نحوٍ استثنائي، أو أكثر شجاعةً من أي شخصٍ آخر. ولكن ما حدث كان أكثر رعبًا، لأنها أمورٌ غير ملموسة، لا يمكن تفسيرها، ولا يمكن إثباتها بالبراهين على الرغم من آثارها العميقة. بدأت أدرك أن أكثر ما أرعبني - وما زال يرعبني الآن بينما استكشف أفكاري ومشاعري - لم يكن ما رأيته، فلم يكن هناك أي شيء منفر أو مخيف بشكل جوهري في تلك المرأة ذات الوجه المهترئ، بل كانت الأصوات الشبحية التي سمعتها في الضباب، قد أقلقتني بشدة بالتأكيد، ولكن ما أقلقني أكثر بكثير، وزعزع توازني، كان في الحقيقة، الأجواء التي انبعثت من تلك الأشياء وأحاطت بها، أجواء أو قوة غامضة لا أعرف بالتحديد كيف أصفها، من الشر والنجاسة، من الرعب والمعاناة، من الخبث والغضب الحاقد. شعرت أنني لا أقوى على مواجهة تلك الأشياء.

جاء مالك النَزل لكي يرفع طبق الإفطار الفارغ، ويعيد ملأ فنجان القهوة، قال: «(كرثين) اليوم أهدأ. يأتي كثيرون من خارج المدينة إلى هنا في يوم السوق، ولكن اليوم لن يكون هناك الكثير من الأحداث».

وقف للحظة ينظر إليَّ بتمعن، فشعرت بأن عليَّ أن أعتذر مجددًا عن إيقاظه بالأمس كي يدخلني إلى غرفتي. هزَّ رأسه: «بالعكس، كان ذلك مريحًا لي أكثر من أن تضطر... لقضاء ليلة مزعجة في أي مكانٍ آخر».

«في الحقيقة، كانت ليلتي مزعجة على أي حالٍ، يبدو أنني حصلت على جرعة زائدة من الأحلام السيئة، كنت قلقًا لمعظم الليل».

لم يقل شيئًا.

«أظن أن ما أحتاجه هذا الصباح، هو القيام ببعض الأنشطة في الهواء الطلق، ربما سأتمشى قليلًا في الريف، وأشاهد مزارع الرجال الذين جاءوا بالأمس لحضور السوق».

ما قصدته هو أنني أخطط لأن أدير ظهري للمستنقعات، وأن أسير في خط مستقيم في الاتجاه المقابل.

«حسنًا، ستجد السير سهلًا ولطيفًا، فالأرض هنا مسطَّحة مثل ملاءة سرير لأميال طويلة، بالطبع يمكنك الذهاب إلى أبعد من ذلك إذا أردت أن تتجول على ظهر حصان».

«مع الأسف، لم أركب حصانًا من قبل في حياتي، ويجب أن أعترف أنني لا أشعر أنني مستعد للبدء في ذلك اليوم».

قال فجأة وهو يبتسم: «أو يمكنني أن أعيرك عجلة متينة».

عجلة! رأى ملامحي تتغير، فقد كنت أركب العجلات بانتظام في طفولتي، وما زلت، كنت آخذ القطار بصحبة ستلا إلى خارج لندن، ونتجه إلى إحدى قناطر نهر (التيمز)، لكي نركب العجلات لميل أو أكثر بمحاذاة النهر، ونأخذ سلال التنزه المليئة بالطعام والشراب.

قال: «ستجدها في الباحة الخلفية، خذها إذًا، إذا رغبت»، ثم خرج من غرفة الطعام.

كانت فكرة ركوب العجلة لساعة أو أكثر، فكرةً مبهجةً بشدة، لكي أتخلص من خيوط العنكبوت التي علقت بي منذ ليلة أمس، لكي أنتعش وأسترد نفسي، شعرت بمزاجي يتحسَّن، بل أكثر من ذلك، فأنا لن أهرب من هنا.

بدلًا عن ذلك، قررت أن أذهب إلى السيد جيروم، والتحدث معه. قررت أنني سأطلب المساعدة في القيام بترتيب أوراق السيدة درابلو - ربما لديه عامل في مكتبه يمكنني استعارته. كنت متأكدًا، وقتها، في ضوء النهار، وسط بشر آخرين، أنني أصبحت قويًا كفاية لمواجهة (إيل مارش) من جديد. سأعود إذًا إلى هناك قبل حلول

المساء بوقت طويل، وأعمل بأكبر قدرٍ من الانتظام والكفاءة، ولن أسير مُطلقًا باتجاه تلك المقبرة.

كان مدهشًا كيف تحسَّنَتْ روحي بعد أن امتلأ جسدي بالعافية مجددًا، وشعرت بأنني عدت إلى طبيعتي مرةً أخرى بمجرد أن خطوت خارجًا إلى الميدان، وبدأت تتصاعد داخلي دفقات البهجة وأنا أتطلع إلى تلك الجولة على العجلة.

وجدت مكتب هوراشيو جيروم - وكيل الأراضي والعقارات - عبارة عن حجرتين ضيقتين، وسقف منخفض، فوق مخزن لتجارة الذرة في الشارع الضيق المؤدي إلى الميدان، وعلى الرغم من أنني توقعت أن أجد موظفًا أو سكرتيرًا يأخذ اسمي، إلا أنني لم أجد أحدًا، كان المكان هادئًا، والحجرة الخارجية المخصصة للانتظار فارغة وقذرة. ذهبت ناحية الباب الوحيد في الحجرة، بعد أن تجولت في حجرة الاستقبال لبضع لحظات، فلم أجد سوى هذا الباب المغلق، فطرقته، إلا أن الصمت استمر قليلًا قبل أن أسمع صوت تحرك كرسي ثم خطوات سريعة. فتح السيد جيروم الباب.

اتضح لي على الفور أنه لم يكن سعيدًا برؤيتي على الإطلاق، اكتسى وجهه بنفس الملامح المنغلقة الميتة التي ظهرت عليه بالأمس، وتردَّد قبل أن يدعوني أخيرًا إلى الدخول إلى المكتب، ثم ألقى عليَّ بنظرة سريعة غريبة قبل أن يشيح بنظره سريعًا إلى نقطة ما، وراء كتفي. لم أقل شيئًا منتظرًا أن يسألني عن عملي في منزل (إيل مارش)، ولكنه استمر في صمته، فبدأت في تقديم عرضي إليه.

«كما تعرف، لم يكن لدي أدنى فكرة - ولا أعرف إذا كان لديك أدنى فكرة، أنت أيضًا - عن حجم أوراق السيدة درابلو، أطنان من الأوراق، معظمها بلا قيمة، بلا شك، ولكن لا بُدَّ من فحصها ورقةً ورقةً على أي حالٍ. من الواضح أنني سأحتاج إلى بعض المساعدة، إلا إذا أقمت هناك لبعض الوقت».

علت وجه السيد جيروم ملامح هلع، وحرك كرسيه إلى الوراء، بعيدًا عني، بينما يجلس وراء مكتبه القديم، حتى ظننت أنه على وشك اختراق الحائط وراء ظهره والسقوط إلى الشارع، أظنه يود فعل ذلك جدًّا.

«مع الأسف الشديد، ليس بإمكاني تقديم أي مساعدة يا سيد كيبس، لا، على الإطلاق».

قلت بنبرة مطمئنة: «لم أفكر في أن أطلب منك أنت القيام بأي شيءٍ، ولكن ربما مساعد صغير السن».

«ليس لدي أي مساعدين، أُدير المكان بمفردي، ليس بإمكاني تقديم أي مساعدة لك».

«حسنًا إذًا، ساعدني أن أجد أحدًا، من المؤكد أن في المدينة شاب صغير السن متوسط الذكاء، يمكنني الاعتماد عليه في تلك المهمة، بالإضافة إلى أنه سيحصل على بعض المال».

لاحظت أن يديه المستقرتين على الكرسي، تتحركان بتوتر، تتحركان بعصبية، تنقبضان وترتخيان.

«أنا آسف، المدينة هنا مكان صغير، والشباب يغادرون؛ لا توجد الكثير من الوظائف».

«ولكني أقدِّم وظيفة.. ولو مؤقتًا».

قال وهو يصرخ تقريبًا: «لن تجد أحدًا مناسبًا».

قلت بعدها، بهدوء شديد وثبات: «سيد جيروم، ما تريد قوله في الحقيقة ليس أنه لا يوجد شاب، أو حتى رجل أكبر سنًا لا فرق بذلك الخصوص، متاح أو قادر في القرية أو المنطقة المجاورة للقيام بالعمل، حتى بعد بحثٍ دقيقٍ، نعم أظن أنه لن يتقدَّم الكثيرون، ولكننا سنجد شخصًا أو اثنين مناسبين، ولكنك تخشى قول الحقيقة، حقيقة الأمر أن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، سيرغب في قضاء أي وقت في (إيل مارش)، خوفًا من القصص المنتشرة عن المكان، خوفًا من أن يكتشف أن القصص حقيقية، وخوفًا من التعرض لما تعرضت له».

لم يكن سوى الصمت المطبق. ظلَّت يد السيد جيروم تتحرك مثل مخالب حيوان يصارع، وامتلأت جبهته الشاحبة التي تُشبِه القبة، بحبات العرق. قام أخيرًا، واتجه إلى النافذة الضيقة، لينظر فوق إطارها المتسخ إلى البيوت المقابلة، إلى الشارع الهادئ بالأسفل، ثم قال أخيرًا، ما يزال ظهره لي: «لقد عاد كيكويك من أجلك».

«نعم. أنا أكثر من ممتن لما قام به».

«لا يوجد شيء لا يعرفه كيكويك عن (إيل مارش)».

«هل أفهم من ذلك أنه كان يوصل أشياء أحيانًا للسيدة درابلو؟»

هز رأسه موافقًا: «لم تكن ترى أحدًا غيره»، ثم تلاشى صوته.

قلت بهدوء: «لم تكن ترى كائنًا حيًّا غيره».

حين تكلم مجددًا، كان صوته منهكًا مبحوحًا، قال: «هناك حكايات، لا شيء أكثر من هراء».

يمكنني تصديق ذلك، في مكان مثل هذا ستنمو حوله وحوش المستنقعات وكائنات الأعماق والقرع الشرير، بكميات كبيرة جدًّا».

«معظم تلك الحكايات غير حقيقية».

«بالطبع، ولكن ليس جميعها».

«رأيت تلك المرأة في المقبرة؟»

«ورأيتها مرة أخرى حين ذهبت في جولة حول أراضي (إيل مارش)، بعد أن تركني كيكويك عصر أمس. كانت في تلك المقبرة القديمة، ما هذه الأطلال؟ كنيسة؟»

«كان يوجد دير في تلك المنطقة في زمنٍ بعيدٍ، قبل أن يُبنى البيت، مجموعة من الرهبان عزلت نفسها هناك عن العالم، يَرِد ذِكرُهم في كتب التاريخ عن المنطقة، ولكنهم هجروا الدير، تركوه يضمحل قبل قرون».

«والمقبرة؟»

«كانت مستخدمة لبعض الوقت، وتمت إضافة بعض القبور».

«قبور عائلة درابلو؟»

استدار فجأة ناحيتي، فوجدت وجهه وقد اصطبغ باللون الأصفر والشحوب، وأدركت كَمْ تأثر جديًا بحوارنا، وأنه يفضِّل عدم مواصلة هذا الحديث. كان عليَّ إذًا أن أقوم بهذه الترتيبات بنفسي، ولكني قررت في تلك اللحظة، أن أتخلى عن محاولة العمل مع السيد جيروم، والاتصال مباشرةً بالسيد بنتلي في لندن، ولهذا الغرض، لا بُدَّ أن أعود إلى النُزل.

قلت: «حسنٌ، لن يمنعني شبح أو اثنان من القيام بعملي يا سيد جيروم، يجب أن أعترف أن الأمر ليس سارًا على الإطلاق، وأنني سأسعد كثيرًا بانتهاء العمل في ذلك المنزل، ولكن يجب الانتهاء منه أولًا. أشك كثيرًا في أن يكون لدى المرأة في الملابس السوداء أيُّ عداء تجاهي، مَن كانت يا ترى؟ بل مَن تكون؟» ثم ضحكتُ، ولكن الضحكة خرجت مني مزيفةً: «لا أعرف كيف أشير إليها!»

كنت أحاول أن أجعل من ذلك الموضوع الجاد، أمرًا خفيفًا، ولكنَّ كلينا يعرف أنه ليس كذلك، حاولت أن أطرحه جانبًا، باعتباره بلا أهمية، أو ربما بلا وجود حتى، هذا الأمر الذي أثَّر فينا نحن الاثنين، تأثيرًا عميقًا، أكثر من أي تجربة أخرى خضنا فيها في حياتنا، هذا الأمر الذي أخذنا إلى حافة الأفق، حيث تلتقي الحياة مع الموت. قلت: «يجب أن أواجه الأمر، سيد جيروم، يجب على المرء أن يواجه مثل تلك الأمور»، وشعرت بإصرارٍ جديدٍ ينمو داخلي بينما أتحدث.

قال السيد جيروم وهو ينظر لي مشفقًا: «هكذا كنت أقول، هكذا كنت أقول في السابق».

لم يكن خوفه هذا إلا وقودًا لقراري، كان ضعيفًا ومكسورًا، ممَ؟ امرأة؟ بعض الأصوات؟ أم أن هناك المزيد مما يجب أن أكتشفه بنفسي؟ أعرف أنني لو سألته، سيرفض الإجابة، وعلى أي حال، لم أكن واثقًا أنني أريد لتلك الحكايات المخيفة الغريبة من تجارب السيد جيروم السابقة في (إيل مارش)، أن تملأني. قررت أنني يجب أن أعتمد على الأدلة التي أختبرها بنفسي، ولا شيءَ آخر، لكي أصل إلى حقيقة الأمر، ربما من الأفضل أنني لن أحصل على أي مساعدة في النهاية.

استأذنت في الانصراف، وأخبرت السيد جيروم وأنا في طريقي إلى الخارج، أنني على الأرجح لن أرى تلك المرأة مرة أخرى، أو أي زائر غريب آخر في منزل المرحومة السيدة درابلو.

قال السيد جيروم: «أدعو ألا يحدث لك ذلك، أدعو لك»، وأمسك بكفي في قبضته القوية، ضاغطًا عليها بعنف، بينما يصافحني.

قلت: «لا تقلق من ذلك الأمر»، وجعلت صوتي يبدو مبتهجًا وغير مهموم، ثم ركضت سريعًا، نازلًا على السلم، تاركًا السيد جيروم لتوتره.

عدت إلى نُزل (جيفورد آرمز) وبدلًا من أن أتصل بالسيد بنتلي، كتبت له رسالة. وصفت له المنزل، وأكوام الأوراق، وشرحت له أنني يجب أن أبقى لمدة أطول مما توقعت، وأنني أتوقع رده، وما إذا كان يريد عودتي فورًا إلى لندن، والقيام بترتيبات أخرى. أضفت أيضًا إشارةً سريعةً إلى سمعة (إيل مارش) بين السكان المحليين، وأخبرته أن لهذا السبب - ولأسباب أخرى أقل أهميةً أيضًا - سيكون من الصعب الحصول على أي مساعدة، إلا أنني سأحاول على أي حالٍ. يجب أن ينتهي العمل في جميع الأحوال في غضون الأسبوع، ويجب أن أرسل الأوراق والمستندات التي تبدو مهمة إلى لندن.

وضعت الرسالة على الطاولة في صالة الاستقبال لكي يتم إرسالها عند الظهيرة، وخرجت لأبحث عن عجلة مالك النُزل، كانت عجلة جيدة، من طراز قديم، ومُعلَّق بها سلة في الأمام، تمامًا مثل التي يقودها صبي الجزار في لندن. ركبتها، وبدَّلت عجلاتها خارجًا من الميدان، سلكت أحد الطرق الجانبية باتجاه الحقول المفتوحة. كان يومًا مثاليًا لركوب العجلات، وباردًا بما يكفي كي تلسع الرياح وجنتي بينما أسير، وصافيًا وبرَّاقًا كفاية لكي أتمكن من الرؤية لمسافة بعيدة في كل الاتجاهات، عبر الحقول المنبسطة والممتدة.

نويت أن أركب العجلة إلى القرية المجاورة، وتمنيت أن أجد هناك نُزلًا محليًا، يمكنني أن أتناول فيه بعض الخبز والجبن والبيرة وقت الغداء، ولكن فور وصولي إلى آخر صف البيوت، لم أتمكن من مقاومة الرغبة التي انفجرت داخلي بقوة، لكي أتوقف وأنظر، ليس باتجاه الغرب حيث يمكنني رؤية المزارع والحقول وأسطح بيوت القرية الأخرى، ولكن باتجاه الشرق. هناك، ها هي تتمدد، تلك المستنقعات الفضية اللامعة، والشمس فوقها شاحبة عند الأفق، قد مالت باتجاه مياه الخليج. هب نسيم خفيف، يحمل رائحة الملح في أنفاسه. وعلى الرغم من المسافة البعيدة التي تفصلني، ما زال بإمكاني سماع الصمت الغامض هناك، وأثارت مشاهدة ذلك الجمال الغريب ردّ فعلٍ عميقًا داخلي، ليس بإمكاني الهروب من هذا المكان، لقد وقعت ضحيةً لتعويذته، التعويذة التي تلقيها عليَّ أماكن معينة، فتجذبني إليها، وتجذب معي روحي كلها وفضولي.

ظللت أبحث وأبحث عن تفسيرٍ لما يحدث لي، وأدركت في النهاية أن مشاعري الآن قد أصبحت متقلِّبة وعنيفة، وردود أفعالي العصبية شديدة القرب من السطح، سريعة وعميقة، كأنني أحيا في بُعدٍ آخر، يدق قلبي فيه بسرعة، وتبدو فيه خطواتي أسرع. كان كل ما رأيته أكثر بريقًا، أوضح لونًا وأدق تحديدًا. كل هذا حدث منذ الأمس، تساءلت إذا كنت قد تغيرت بطريقة ما، وأن أهلي وأصدقائي سيلحظون التغيير حين

أعود إلى البيت. شعرت كأنني أكبر سنًا، كأنني رجل في محاكمة، نصف خائف، نصف متحمس ومتعجب، ومستعبَد بالكامل.

أما الآن، فقد تمكنت من السيطرة على مشاعري الحادة. ولكي أحافظ على توازُني المعتاد، سأتريض قليلًا، وهكذا أدرت اتجاه العجلة، صعدت عليها، وبدَّلت بانتظام باتجاه الطريق الريفي، معطيًا ظهري بحزم إلى المستنقعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٨)

سبايدر

عدت بعد أربع ساعات معافى، في حالة من الانتعاش والإيجابية، كنت قد قطعت ثلاثين ميلًا بإصرار عبر الحقول، ورأيت آخر خيوط الخريف الذهبية تتلاشى في بداية الشتاء، وشعرت بالبرودة المنعشة على وجهي، وطرد النشاط الجسدي المليء بالطاقة أي خوف أو قلق أو أي خيالات مريعة. كنت قد وجدت نُزلًا في القرية المجاورة، وتناولت خبزًا وجبنًا، وبعد ذلك استأذنت من أحد المزارعين كي أنام في حظيرته لساعة.

شعرت في طريق عودتي إلى (كرثين جيفورد) كأنني رجل جديد، فخور وراضٍ، وأهم من أي شيء آخر، متحمس ومستعد لمواجهة أسوأ ما سيلقيه في وجهي منزل السيدة درابلو وتلك المستنقعات الشيطانية المحيطة به. باختصار؛ كنت جريئًا، جريئًا ومبتهجًا، وهكذا دلفت من زاوية الشارع إلى الميدان، وكدتُ أرتطم بسيارة كبيرة تحاول دخول الشارع الضيق، وبينما أنحرف مبتعدًا، وأتعثر محاولًا الحفاظ على توازني، رأيت في السيارة رفيقي في قطار السفر، الرجل الذي كان يشتري المزارع في مزاد الأمس، السيد صامويل دايلي. ها هو الآن يطلب من سائقه إيقاف السيارة، ويتكئ على نافذتها ليسألني عن حالي.

قلت مبتهجًا: «لقد عدت لتوي من جولة في الحقول، سوف ألتهم عشائي بشهية مفتوحة بلا شك».

رفع السيد دايلي حاجبه وقال: «وعملك؟»

«تركة السيدة درابلو؟ قريبًا جدًّا سيكون كلُّ شيءٍ منتهيًا، إلا أنني يجب أن أعترف أن العمل أكثر مما توقعت».

«هل ذهبت لزيارة المنزل؟»

«بالتأكيد».

«هه».

تبادلنا النظرات لثوانٍ، ولم يكن أحدنا راغبًا في الحديث عن الموضوع أكثر من ذلك. بعد ذلك، بينما أستعد لركوب العجلة وإفساح الطريق لسيارته، قلت بمرح: «في حقيقة الأمر، أنا مستمتع جدًّا بوجودي هنا، وأجد المهمة في مجملها تحديًا».

ظلَّ السيد دايلي ينظر إليَّ بثباتٍ، حتى اضطررت إلى إزاحة عيني والنظر بعيدًا، وشعرت كأنني طالب مدرسة ضُبط أثناء محاولاته إيجاد الطريق عبر كذبة ينسجها.

قال: «سيد كيبس، هذا ما تقوله لنفسك لتطمئن. دعني أدعوك إلى هذا العشاء الذي تقول إن شهيتك مفتوحة لتناوله. الساعة السابعة؟ يمكن لمالك النُزل أن يدلك على

عنوان منزلي»، ثم أشار إلى السائق، وعاد إلى مقعده دون أن ينظر إليَّ مرة أخرى.

بدأت فور عودتي إلى النُّزُل في وضع ترتيبات جدية لليوم التالي والأيام التي ستليه، وعلى الرغم من أن كلام السيد دايلي يحمل بعضًا من الحقيقة، كنت ما أزال مصممًا بثبات ومستعدًا أكثر من أي وقت مضى لكي أقوم بالعمل المطلوب في (إيل مارش)، وبناءً على ذلك، طلبت تحضير سلة من المؤن والطعام، وذهبت بنفسي أيضًا إلى المدينة لأشتري بعض اللوازم - أكياس شاي وقهوة وسكر، بعض أرغفة الخبز، علب بسكويت، وتبغ للغليون، وأعواد كبريت، وما إلى ذلك. اشتريت أيضًا مصباحًا كبيرًا وزوجين من الأحذية الطويلة. احتفظت في مؤخرة رأسي بذكرى واضحة جدًّا عن ذلك اليوم في المستنقعات وسط الضباب والمد المرتفع، ولذلك قررت أنه في حال تكرار ذلك الموقف - كنت أدعو بحرارة ألا يحدث ذلك أبدًا - لا بُدَّ أن أكون مستعدًا إلى أقصى درجات الاستعداد، على الأقل لمواجهة أيّ احتمالية.

حين أخبرت مالك النُزل عن خطتي - أنني أنوي قضاء الليلة في نُزله، ومن ثَمّ الانتقال إلى (إيل مارش) لليلتين - لم يقل شيئًا، ولكنني أدركت أنه يستعيد في تلك اللحظة مثلي تمامًا، ذكرى الكيفية التي عدت بها من هناك، كيف طرقت بعنفٍ على بابه في ساعات الصباح الأولى. كانت صدمة تلك التجربة تنتشر مثل حكة على وجهي، وحين سألته هل من الممكن أن أستعير عجلته مرةً أخرى، لم يقل شيئًا، واكتفى بهز رأسه موافقًا. أخبرته أنني أريد الاحتفاظ بغرفتي في النُّزل، وأن مدة بقائي ستعتمد على سرعة إنجازي للعمل على أوراق السيدة درابلو، إلا أن ذلك قد يكون بحلول نهاية الأسبوع.

ظللت منذ تلك اللحظة أتساءل عما دار بخُلد الرجل، فيما فكَّر بخصوصي وبخصوص تلك المهمة التي أخبرته بمرح أنني سأقوم بها، فقد كان من الواضح أنه يعرف مثل الجميع، ليس فقط الحكايات والإشاعات، وإنما أيضًا الحقيقة وراء منزل (إيل مارش). شككت في أنه يريدني أن أرحل بأي طريقة، ولكنه لم يكن يريد أن يتدخل أو أن يعطي نصيحة أو تحذير أو مجرد رأي. لا بُدَّ أن تصرفي في ذلك اليوم أظهر بوضوح أنني لن أحتمل أي معارضة، أو ألتفت إلى أي تحذير، حتى التي جاءت من داخلي. كنت في ذلك الوقت قد أصبحت صلب الرأس مثل حجر، لا أنوي الانحراف عن المسار الذي اخترته.

أدرك السيد دايلي تلك الحقيقة بعد دقائق قصيرة من وصولي إلى منزله في تلك الليلة، فجلس يشاهدني وأنا أثغو بالكلام دون أن يتفوَّه هو بأي كلمة لمعظم الوقت أثناء الوجبة.

كنت قد وجدت طريقي إلى هناك بلا أي صعوبة، وعند وصولي إلى منزله أعجبت به بحقٍّ. كان يعيش في منزل فاخر، بل بالأحرى في حديقة ريفية كاملة، وهو ما جعلني أتذكَّر المنازل التي كان يقطنها أبطال روايات جين أوستن، تلك المنازل ذات الطريق الطويل المؤدي إليها، المصفوف بالأشجار على الجانبين، الأسود الحجرية والأواني على أعمدة على جانبي سُلَّم قصير أمام مدخل المنزل، الممشى المسوَّر

المطل على باحة مغطاة بالعشب وسياج من النباتات المقلمة بعناية. كان للمنزل برمته تأثير باهر، ومبهج بعض الشيء، وإلى حدٍّ ما لا يشبه السيد دايلي نفسه. كان من الواضح أنه اشترى المنزل، فقط لأنه يمتلك ما يكفي من المال لذلك، ولأنه كان أكبر منازل المنطقة الممتدة لأميال حوله، ولكنه بعد أن اشتراه، بدا أنه لم يكن مرتاحًا فيه. تساءلت كم غرفة فارغة في ذلك المنزل يا تُرى؟ كم غرفة غير مستخدمة لمعظم الوقت؟ فبخلاف القليل من العاملين، لم يكن يعيش هناك إلا هو وزوجته، رغم أنه أخبرني أن لديهما ابنًا متزوجًا ولديه ابن.

كانت السيدة دايلي امرأة صغيرة الحجم، خجولة، هادئة، تضع الكثير من المساحيق، وبدت أقل ارتياحًا في محيطها من السيد دايلي نفسه. لم تقل الكثير، ابتسمت بعصبية، وانشغلت بحياكة شيء ما بخيوط قطنية ممتازة.

مع هذا، جعلاني أشعر بترحيبهما الدافئ، وكانت الوجبة رائعة، تتكون من لحم الديوك البرية المشوي، وكعك العسل الأسود. بدأت أشعر بالارتياح.

استمتعت إلى قصة حياة السيد دايلي، وكفاحه حتى الغنى، قبل وأثناء العشاء، وأثناء تناول القهوة التي صبتها السيدة دايلي لنا في غرفة استقبال الضيوف. لم يكن متبجحًا بحظه السعيد أو منتشيًا بما حققه من إنجازات، أطلعني على عدد الأفدنة والعقارات التي يمتلكها، وعدد الموظفين في شركته، وعدد المستأجرين، وأطلعني على خططه المستقبلية، التي لم تكن بحسب ما تبينت سوى أن يصبح أكبر مالك أراضي في البلد. تحدَّث عن ابنه وحفيده الصغير أيضًا، فقد كان يبني إمبراطوريته من أجلهما. أظن أن الكثير من الناس يكرهونه ويحقدون عليه، خاصةً هؤلاء الذين ينافسونه على شراء الأراضي والعقارات، إلا أن من الصعب أن يكرهه أحد، فقد كان بسيطًا، واضحًا، لا يشعر بأي عارٍ تجاه طموحاته. بدا لي ذكيًا، وفي نفس الوقت لا يميل إلى الإيحاءات، مساوم صفقات حاد، ولكن في نفس الوقت منصف تمامًا. بمرور الوقت، وجدت نفسي أتحدث معه بحميمية أكبر، وأثق فيه أكثر، فأخبرته عن طموحي الذي يبدو صغيرًا بالمقارنة مع طموحاته، وهو أن يعطني السيد بنتلي فرصة، وأخبرته عن ستلا ومشاريعنا المستقبلية معًا.

لم يكن أحدنا قد أشار إلى سبب وجودي في تلك المنطقة، حتى استأذنت السيدة دايلي الخجولة في الذهاب إلى غرفتها، وظللنا نحن في غرفة المكتب، بيننا طاولة عليها دورق من النبيذ وآخر من الويسكي.

صبَّ لي السيد دايلي كأسًا هائلًا من النبيذ، وقال بينما يمد به يده إليَّ: «أظن أنك أحمق في تصميمك على القيام بتلك الخطة».

ارتشفت مرة أو مرتين بهدوء دون أن أجيبه، على الرغم من أن حديثه المفاجئ والصريح، قد أثار داخلي عاصفة من الخوف العميق، ولكني كبحته على الفور.

«إذا كنت تعتقد أنني يجب أن أتخلى عن العمل الذي جئت إلى هنا من أجل القيام به، والعودة أجرٌ أذيال...»

«اسمع يا آرثر»، كان قد بدأ في استخدام اسمي الأول بطريقة محلية، دون أن يسمح لي باستخدام اسمه. «لن أملأ رأسك بحكايات النساء تلك... يمكنك أن تسمعهم من أيّ شخصٍ إذا سألت عن ذلك المكان، ربما سألت بالفعل».

قلت: «لا لم أسمع - مجرد إشارات، وشحوب وجه السيد جيروم».

«ولكنك ذهبت إلى هناك».

«ذهبت إلى هناك فعلًا، ومررت بتجربة لا أريد أن أخوض في تفاصيلها الآن، ولكن يجب أن أعترف أنني لا أستطيع تفسيرها».

ثم أخبرته بالقصة كلها، قصة المرأة ذات الوجه الذابل في الجنازة، وفي المقبرة القديمة، وقصة المشي عبر المستنقعات في الضباب، والأصوات المرعبة التي سمعتها هناك. جلس جامدًا مثل الكأس الزجاجي في يده، واستمع دون أن يقاطع حتى وصلت إلى نهاية القصة.

قلت: «يبدو لي يا سيد دايلي أنني قد رأيت ذلك الشبح الذي يسكن (إيل مارش) وتلك المقبرة، امرأة في ملابس سوداء، ووجه ذابل، ليس لدي أدنى شك أنها ما يطلق عليه الناس «شبح»، لم تكن حقيقية، حية، كائنًا بشريًّا يتنفس. حسنٌ، هي لم تَقُم بأي ضررٍ بالفعل، ولم تتحدث معي أو تقترب مني أيضًا، ولكني لم أستسغ هيئتها، وأكثرٌ من هيئتها، لم أستسغ... الطاقة التي شعرت بها تشع تجاهي، ولكني مقتنع الآن، أن تلك الطاقة لا يمكن أن تسبِّب أي أذى، أكثر من أن تشعرني بالخوف. إذا رأيتها مجددًا حين أذهب إلى هناك، سأكون مستعدًا».

«والحصان والعربة؟»

لم أتمكن من الإجابة عليه؛ لأن تلك الحادثة أسوأ، نعم أسوأ بكثير، أكثر رعبًا، لأنني لم أتمكن من رؤيتها، فقط استمتعت إلى صراخ ذلك الطفل الذي لن أنساه أبدًا، أنا متأكد أنني لن أنسى ذلك الصوت طوال حياتي.

هززت رأسي: «لن أهرب».

شعرت بالقوة، وأنا جالس هناك بجوار مدفأة السيد دايلي، وشعرت بالتصميم والشجاعة، وكان قلبي متماسكًا، وأيضًا شعرت - كان السيد دايلي قد رأى ذلك - بالفخر. على هذا النحو يذهب الرجال إلى المعارك إذًا، كنت أفكر، هكذا يتسلحون لمواجهة العمالقة.

«لا يجب أن تذهب إلى هناك».

«بل سأذهب».

«لا يجب أن تذهب إلى هناك بمفردك».

«لم أتمكن من إيجاد أي شخص ليأتي معي».

قال: «لا، ولن تجد».

«يا الله! كم سنة عاشت السيدة درابلو بمفردها هناك؟ ستين عامًا؟ حتى بلغت أرذل العمر. لا بُدَّ أنها تصادقت مع كل الأشباح في ذلك المكان».

قام واقفًا وقال: «أي، ربما هذا هو ما فعلته حقًّا، تعالَ، سيأخذك بانس إلى النُزل».

«لا - أفضِّل السير. أفضِّل الهواء المنعش».

كنت قد ذهبت إلى هناك بواسطة العجلة، ولكني خبأتها بجوار البوابة الخارجية حين رأيت المنزل الفاخر، وشعرت أنه من غير الملائم ركوب العجلة على ذلك الطريق المؤدي إلى المنزل.

وبينما أشكره على الأمسية وحسن الضيافة، وأحاول ارتداء معطفي، بدا وكأنه يفكر في أمرٍ ما، وفي آخر لحظة، قال فجأة: «هل ما تزال مصممًا على خطتك؟»

«نعم».

«إذًا خذ معك كلبًا».

ضحكت. «ليس لدي كلب».

«أنا لدي»، ثم أسرع الخطى أمامي خارجًا من المنزل، نزل السلم إلى ظلام الليل واتجه إلى جوار المنزل حيث توجد المباني الخارجية. انتظرت، مندهشًا، ومتأثرًا بعض الشيء بقلقه عليَّ، وحاولت أن أفكر في الفائدة التي من الممكن أن يقدمها لي كلب في مواجهة وجود الأطياف، ولكني لم أتردد في قبول عرض السيد دايلي. أحب الكلاب جدًّا، وسيكون في صُحبتي كائن حي آخر، من لحم ودم، يتنفس في ذلك البيت القديم البارد.

بعد لحظاتٍ، ها هي أصوات خطوات الكلب، تحرَّك الحصى، تتبعها خطوات السيد دايلي المحسوبة.

قال: «خذها، وأعِدْهَا حين تنتهي».

«هل ستأتي معي دون مقاومة؟»

«ستفعل ما أخبرها به».

نظرت إلى الأسفل، بجوار ساقي، فوجدتها تقف، بجسدها المتين وفرائها الرمادي الداكن وعينيها اللامعتين. حرَّكت ذيلها لبرهة قصيرة بجوار كعب حذاء السيد دايلي، ثم ثبتت بعد أن اعتادت على وجودي.

«ما اسمها؟»

«سبايدر».

هزت الكلبة ذيلها مرةً أخرى.

قلت: «حسنًا، ستسعدني رِفقتُها على أي حالٍ، شكرًا لك»، ثم استدرت وبدأت في السير على الطريق العريض المؤدي إلى البوابة الخارجية، وبعد عدة خطوات،

التفتّ وناديت: «سبايدر، هيَّا، تعالي يا فتاة». لم تتحرك الكلبة، فشعرت بالحماقة، وضحك السيد دايلي، ثم أصدر صوت فرقعة بأصابعه وقال كلمة، فركضَتْ الكلبة ورائي على الفور، والتصقت بحذائي مطيعةً.

استعدت العجلة، بعد أن تأكدت أن أحدًا لا يراني من المنزل، وركضت الكلبة ورائي مبتهجةً، على الطريق الهادئ باتجاه المدينة القابعة تحت ضوء القمر. اشتد أزري، وعلى نحوٍ غريبٍ، صرت أتطلع إلى يوم غد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٩)
في غرفة الأطفال

استمر الجو رائقًا جميلًا، تغمره أشعة الشمس، وتكسوه السماء الزرقاء مرةً أخرى. فتحت الستائر بعد أن استيقظت من نوم خفيفٍ متقطع، ملأته ومضاتٌ من أحلام غريبة، لا يربطها أي رابط، ربما كان ذَلك بسبب ما أكلته وشربته بشهية مفتوحة مع السيد دايلي، ولكنني لم أجد أيَّ تغيير قد طرأ على مزاجي، ما زلت مصممًا ومتفائلًا. بدأت في ارتداء ملابسي، ثم تناولت إفطاري بينما أقوم بالتحضير لإقامتي في (إيل مارش). كانت الكلبة سبايدر قد نامت بلا حراك بجوار السرير، وهو ما فاجأني إلى حدٍّ ما، وتمكنت من التعامل معها على الرغم من أنني لا أعرف الكثير عن الكلاب، فهي كلبة نشيطة، متأهبة، وفي ذات الوقت مطيعة بالكامل، وأوحَتْ لي تعبيراتُ عينها بذكاء متقد، على الرغم من أهدابها المبعثرة بشكل مضحك، والتي شكلت ما يشبه حواجب الخنفساء، أيقنت في تلك اللحظة، أنها ستسليني كثيرًا.

استدعاني مالك النُزل بعد التاسعة بقليل، فقد كان السيد بنتلي على الهاتف. تحدث السيد بنتلي بإيجاز واقتضاب، فهو لا يحب استخدام ذلك الجهاز، كان قد تسلَّم رسالتي، ووافق على ضرورة بقائي حتى أتمكن على الأقل من معرفة طبيعة أوراق السيدة درابلو، وتحديد بعض المستندات التي قد تحتوي على أمور مهمة وسط تلك الأكوام من الأوراق العتيقة وغير المهمة على الإطلاق. يجب عليَّ أن أحزم تلك الأوراق التي أظنها مهمة وأرسلها إلى لندن، وأن أترك الباقي في المنزل ليقوم صاحب الميراث بالتعامل معها في وقت لاحق، ثم أعود إلى لندن.

قلت: «إنه مكانٌ غريبٌ».

قال: «لقد كانت امرأة غريبة»، ثم أغلَق الخط واضعًا سماعته بعنف، فامتلأت أذني بالصفير.

بحلول التاسعة والنصف، كانت سلة العجلة وسلة إضافية قد امتلأتا استعدادًا للرحلة، فانطلقت وسبايدر تركض خلفي. لم يكن من الممكن الانطلاق متأخرًا أكثر من ذلك، وإلا ارتفع المدّ وغمر المسار، وبينما أعبر المستنقعات الواسعة، فكرت في أنني أُحرق مراكبي، على الأقل مؤقتًا، فلم يكن بإمكاني العودة للحصول على أي شيء قد أكون نسيته إلا بعد ساعات.

كانت الشمس عالية في كبد السماء، والماء يلمع، وكل مكان من حولي مضيئًا، ضوء وفضاء وبريق، حتى إن الهواء نفسه بدا نقيًا وأكثر انتعاشًا. حامت الطيور البحرية، ارتفعت وانخفضت فوق رأسي، فضية وبيضاء، وأمامي في نهاية المسار الطويل المستقيم، أومض منزل (إيل مارش) محددًا مساري مثل فنار.

لنصف ساعة أو أكثر بعد وصولي، عملت جاهدًا على إعداد كل شيء لنفسي، أعني الأمور المنزلية، وجدت أطباقًا وأواني خزفية وملاعق وأدوات مائدة في المطبخ

الكئيب عند نهاية المنزل، غسلتها وجففتها، ثم ووضعتها جانبًا لأستخدمها في وقت لاحق، وجهزت ركنًا من مخزن الطعام لأضع فيه مؤنتي. وجدت بعض الشراشف النظيفة، بعد أن بحثت الأدراج والدواليب في الطابق العلوي، ووجدت بطانية، وضعتها في الهواء أمام المدفأة التي أشعلتها في غرفة الاستقبال. أشعلت نيرانًا أخرى في مدافئ غرفة الطعام والردهة الصغيرة، ونجحت بعد محاولات فاشلة عديدة في تشغيل سخَّان مياه أسود اللون، أملًا في أن أحصل على حمَّام ساخن في المساء.

رفعت الستائر بعد ذلك، وفتحت بعض النوافذ، ثم جلست خلف مكتب كبير في أحد أركان غرف الاستقبال، التي اخترتها لأن نافذتها تطل على مشهد جميل للسماء والمستنقعات والخليج. وضعت بجواري صندوقين مليئين بالأوراق، ثم بدأت في العمل، على يميني فنجان شاي، وبجوار ساقي الكلبة سبايدر. كان عملًا شاقًا ومضجرًا، ولكني أكملت بصبر، أفك حزمة الأوراق، وأفحصها بفضول، حزمة بعد حزمة من الأوراق عديمة القيمة، ثم ألقي بهم في صندوق فارغ، وضعته بجانبي لهذا الغرض. حسابات المنزل العتيقة، فواتير شراء منذ ثلاثين أو أربعين عامًا، أو أكثر، كشوفات بنكية، وصفات أطباء، تحديد قيمة عمل من نجارين ومهندسي ديكور وعمال تركيب زجاج، رسائل كثيرة من أشخاص مجهولين - بطاقات تهنئة بمناسبة عيد الميلاد، وبطاقات تهنئة بالمناسبات السنوية، ولكن لم يكن من بينها أي بطاقة تحمل تاريخ في السنوات الأخيرة، بالإضافة إلى بعض حسابات في متاجر لندن الكبيرة، وقوائم تسوق ومقاسات.

احتفظت بالرسائل فقط لكي أتفحصها لاحقًا، كل ما عدا ذلك ليس إلا نفايات. من حين لآخر، أنظر خارج النافذة كي أكسر حدة الملل، نحو المستنقعات التي ما زالت بلا أي ظلال، هادئة وجميلة في ضوء شمس الشتاء. أعددت لنفسي غداءً من اللحم البارد والخبز والبيرة، وبعد الثانية ظهرًا بقليل، ناديت سبايدر، وذهبت إلى الخارج. شعرت بالهدوء والسكينة، وبعض الإنهاك بسبب جلستي الصباحية الطويلة على المكتب، وبعض الملل أيضًا، ولكني لم أشعر بأي توتر على الإطلاق. بالتأكيد، كانت ذكرى زيارتي الأولى إلى ذلك المنزل والمستنقعات، قد تبخرت، بكل رعبها وأطيافها، كما تبخر الضباب الذي أحاط بي لوقت قصير آنذاك. كان الهواء منعشًا وصافيًا، فمشيت في دائرة كاملة حول مساحة الأرض التي يحتلها منزل (إيل مارش)، وألقيت من حين لآخر بقطعة خشب لكي تطاردها الكلبة وتستعيدها بسعادة. كنت أتنفس بعمق وبارتياح كامل في ذلك الهواء النظيف، حتى إنني تجاسرت على السير حتى أطلال المقبرة، وانطلقت سبايدر تتجول بحثًا عن أرانب حقيقية أو خيالية، وتحفر من حين إلى آخر بأظافر قدميها الأماميتين، تملؤها حماسة جنونية مفاجئة، ثم تقفز وتركض مبتعدةً بنشاط. لم نرَ أحدًا، ولم تكن هناك أي ظلال على العشب.

تجولت بين القبور القديمة لبعض الوقت، محاولًا فك شفرات الأسماء على الشواهد، بدون أي نجاح، حتى وصلت إلى الركن الذي وقفت فيه المرأة في الملابس السوداء. هناك، على الشاهد الذي استندت إليه تلك المرأة في المرة السابقة - إنني متأكد تمامًا

أنني أتذكر بشكل صحيح - ظننت أن بإمكاني رؤية حروف اسم درابلو، كانت الحروف مغطاة بملح الخليج الذي حملته الرياح إلى هنا خلال السنوات الطويلة من الطقس السيئ.

فـ... ذكـ... ى

... نيت درابلو

...١٩٠...

وذكـ...

...نيال... لو

مولـ...

تذكرت أن السيد جيروم كان قد ألمح إلى بعض القبور الخاصة بعائلة درابلو، قبور لم تعد مستخدمة في مكان آخر، غير باحة الكنيسة، وخمنت أن ذلك المكان هنا هو قبر أحد الأجداد منذ زمن. من المؤكد الآن أن لا شيء هنا إلا عظام قديمة، فشعرت بالاطمئنان والأمان، ووقفت هناك أتأمل المشهد والمكان الذي كان قد أصابني في السابق بالذعر وبشعور بالغموض والشر، ولكنني الآن أراه مجرد مكان كئيب لأنه متهدم ومهجور. لقد كان من نوعية الأماكن التي ألهمت قبل مئة عام أو أكثر الشعراء الرومانسيين، فأقاموا بها وكتبوا عنها بعض القصائد الحزينة المثيرة للغثيان.

عدت إلى المنزل بصحبة الكلبة. لقد أصبح الهواء أكثر برودة، وفقدت السماء لونها بعد أن مالت فيها الشمس إلى المغيب.

في الداخل، صنعت لنفسي المزيد من الشاي، وأشعلت نار المدفأة، وقبل أن أعود مرةً أخرى إلى تلك الأوراق المملة، تفحصت رفوف الكتب في غرفة الاستقبال بشكل عشوائي، واخترت كتابين لأقرأ فيهما في المساء بعد انتهاء عمل اليوم: رواية للسير والتر سكوت، وديوان شعر لجون كلير. أخذت الكتابين ووضعتهما على دولاب في إحدى الغرف الصغيرة التي اخترت أن أهيئها للنوم، اخترت تلك الغرفة بالتحديد لأنها بقرب مقدمة المنزل، ولم تكن كبيرة جدًّا أو باردة مثل الغرف الأخرى، ولذلك قررت أنها ستكون ملائمة وحميمية. يمكنني أن أرى الجزء البعيد عن الخليج من المستنقعات خلال نافذة تلك الغرفة، وإذا مددت عنقي قليلًا خارجها، يمكنني رؤية خط مسار (السبع أرواح).

استمررت في العمل متأخرًا في الأمسية، حتى أظلمت السماء، فأشعلت كل المصابيح التي وجدتها، وأغلقت الستائر، ثم أحضرت المزيد من الحطب للمدفأة من مخزن ملحق بالمنزل، كنت قد حددت موقعه بجوار باب المطبخ الخلفي.

تنامت كومة النفايات في الصندوق، بالمقارنة مع عدد قليل من الأوراق التي ظننت أنها يجب أن تُفحَص بعناية أكبر. أحضرت المزيد من الصناديق والأدراج المليئة بالأوراق من مختلف أركان المنزل، وظننت أن العمل يجب أن ينتهي في نهاية يومٍ

آخر وربما نصف يوم ثالث على أقصى تقدير. تناولت كأسًا من النبيذ الإسباني، بعد عشاء بسيط، ولكن ليس سيئًا، شاركتني فيه سبايدر، بعد ذلك شعرت بالإرهاق، فقررت أن آخذ جولة في الخارج قبل أن أذهب إلى النوم.

كان كل شيء هادئًا، لم يكن هناك أي نسيم، وبالكاد تمكنت من سماع صوت الماء الزاحف. كانت الطيور قد آوت إلى أعشاشها منذ مدة، واصطبغت المستنقعات باللون الأسود وبالصمت، وتمددت أمامي لأميال طويلة.

كنت قد أعدت تذكُّر تفاصيل ما حدث - أو بالأحرى، ما لم يحدث - اليوم في (إيل مارش)، كل التفاصيل التي أمكنني تذكُّرها، لكي أذكِّر نفسي بأنني في حالة هدوء عقلي ثابتة، وأن الأحداث الغريبة التي كانت قد أخافتني وأزعجتني للغاية، لم يعد لها وجود، فحتى وأنا أفكر فيها، هذا لو فكرت فيها بالأساس، كنت أهز كتفي استخفافًا. لم يحدث أيُّ شيءٍ آخر، لم يُصِبني أي ضرر، بل كان إيقاع اليوم والأمسية عاديًا وغير مثير للاهتمام. كانت سبايدر رفيقًا ممتازًا، وأسعدني سماع صوت أنفاسها اللطيفة، وصوت أظافرها وهي تحكّ مكانًا ما في ذلك البيت الكبير الفارغ. لم يكن شعوري الرئيسي سوى السأم والنعاس، ممزوجًا برغبة في الانتهاء من ذلك العمل، والعودة إلى لندن، إلى ستلا، حبيبتي. تذكرت أنني أريد أن أقترح عليها امتلاك كلب صغير، مثل سبايدر، فور أن نشتري منزلًا، وبالفعل قررت أن أطلب من السيد دايلي أن يحتفظ لي بجرو صغير إذا ما ولدت سبايدر يومًا.

كنت قد عملت بكدٍّ وتركيز، وتجولت قليلًا في الهواء المنعش. استلقيت في السرير، وقرأت لنصف ساعة تقريبًا في رواية ' قلب ميدلوثيان'، واستقرت الكلبة على سجادة بجوار السرير. أظن أنني نمت على الفور بعد أن أطفأت المصباح، نمت نومًا عميقًا أيضًا، وحين استيقظت - أو بالأحرى تم إيقاظي - فجأة، شعرت بالذهول وعدم اليقين فيما حولي، ولثوانٍ لم أكن أعرف أين أنا ولماذا أنا هنا؟ رأيت أن الظلام قد حل بالكامل، ولكن حين اتضحت الرؤية أكثر، رأيت أن ضوء القمر يتسلل عبر النافذة، لأني كنت قد تركت الستائر الثقيلة الغليظة مفتوحة والنافذة مفتوحة قليلًا. سقط ضوء القمر على غطاء السرير المطرز، وعلى خشب الدولاب الداكن، وعلى صندوق خشبي ومرآة في الغرفة، كان ضوءًا باردًا، وجميلًا أيضًا، فكرت أن أقوم وألقي بنظرة من النافذة على المستنقعات والخليج.

في البداية، بدا كل شيء هادئًا، ساكنًا للغاية، وتعجبت من استيقاظي المفاجئ، ثم أدركت - قفز قلبي من صدري - أن سبايدر قد استيقظت أيضًا وأنها تقف عند الباب، كل شعرة في جسدها منتصبة، أذناها متأهبتان، ذيلها مرفوع، جسدها بالكامل مشحون، كأنها على وشك الوثب. وتُصدر صوتًا منخفضًا ناعمًا من أعماق حلقها. جلست مشلولًا، مثلجًا، على حافة السرير، ولم أكن أعي شيئًا مما حولي سوى حال الكلبة، وجلدي الذي ملأته القشعريرة بسبب ذلك الصمت، الصمت الذي بدا فجأة، نوعًا آخر من الصمت، مشؤوم ورهيب. ثم سمعت أصواتًا من عمق المنزل، من مكان ما ليس بعيدًا عن الغرفة التي أجلس فيها، كان صوتًا خافتًا، ورغم تركيزي الشديد في الاستماع، لم أتمكن من معرفة سببه، لقد كان أشبه بصوت مضخة، أو هدير عادي ولكن متقطع، لم يحدث أي شيء آخر، لا وقع

خطوات، لا صرير في خشب الأرضية، بل كان الهواء ساكنًا، ولم تعوِ الرياح خلال أقمشة الستائر، فقط تلك الأصوات المكتومة التي استمرت بينما ظلت الكلبة تقف، متأهبة عند الباب، تضع أنفها عند الفتحة أسفل الباب، تتشمم، والآن، ها هي تتراجع إلى الوراء، رأسها مرفوع، تحاول مثلي الاستماع. ومن حين لآخر، تزوم.

في النهاية، تمكنت من القيام من السرير، أظن أنني تمكنت من ذلك بسبب أن شيئًا آخر لم يحدث، وبسبب وجود الكلبة التي يمكنني اصطحابها، وبرغم ذلك، كنت أنتفض، وقلبي ينبض بسرعة مقلقة. استغرقت بعض الوقت كي أستجمع شجاعةً كافيةً، وأتمكن من فتح باب الغرفة، وأقف خارجها في الممر المظلم. في اللحظة التي خرجت فيها، انطلقت سبايدر إلى الخارج، سمعت صوت أقدامها، وصوت أنفها تتشمم كل باب مغلق، كانت ما تزال تزوم وتئن من أعماق حلقها.

بعد لحظات، سمعت نفس الصوت الغريب مرةً أخرى، قادمًا من آخر الممر الطويل على اليسار، ولكني ما زلت لا أستطيع تحديد طبيعته، تجرأت على التقدم لبضع خطوات في اتجاه الصوت، بحذر شديد، أتنفس بصعوبة وأرهف السمع، وسبايدر تسبقني. لم يكن في الممر سوى ثلاث غرف على الجانبين، تمالكت أعصابي ورحت أفتح الأبواب، واحدًا تلو الآخر، وأنظر بالداخل، لا شيء هناك، لا شيء سوى الأثاث القديم، وأسِرَّة غير مُرتَّبة، وضوء القمر في الغرف الخلفية من المنزل، وفي الأسفل، في الطابق السفلي، لا شيء سوى الصمت، صمت مطبق، يمكن لمسه تقريبًا، يحيط بكل شيء، وظلام ضبابي كثيف مثل الصوف.

وصلت أخيرًا إلى الباب في آخر الممر، كانت سبايدر قد سبقتني إليه، وتصلب جسدها وهي تتشمم الأرض أسفله، وارتفعت زمجرتها. وضعت كفي على عنقها، ومسحت على شعرها القصير الكثيف، محاولًا تهدئة نفسي قبل أن أهدئها، يمكنني الشعور بالتوتر في أطرافها وجسدها، توتر يماثل توتري.

كان ذلك الباب هو نفسه الباب الذي ليس له فتحة مفتاح، الباب الذي لم أتمكن من فتحه أثناء زيارتي الأولى إلى (إيل مارش). ليس لدي أدنى فكرة عما يقبع خلف هذا الباب، سوى هذا الصوت، إنه آتٍ من تلك الغرفة، ليس مرتفعًا جدًّا ولكن مسموع، على الجهة الأخرى لذلك الحاجز الخشبي بالتحديد. كان صوت ارتجاج خفيف على الأرضية، له إيقاع بطريقة ما، صوت مألوف، ولكني ما زلت لا أستطيع تحديده، بدا كأنه صوت قادم من الماضي، ليوقظ ذكريات شِبه منسية، ومشاعر قوية داخلي، صوت لو سمعته في مكان آخر، لربما جعلني أشعر بالفضول والألفة والارتياح، ولكن هنا، يملأني بالخوف.

بدأت سبايدر تئن عند قدمي، أنينًا نحيلًا، خائفًا، تعيسًا، وتتراجع بعيدًا عن الباب لكي تلتصق بساقي. شعرت بحلقي جافًا منقبضًا، وبدأت بالارتعاش. يوجد شيء ما في تلك الغرفة، ولكني لا أستطيع الوصول إليه، ولا أجد في نفسي الجرأة على ذلك إن استطعت. قلت لنفسي لربما هو فأر أو طائر حبيس، سقط عبر المدخنة، ولا يمكنه الخروج مرةً أخرى، إلا أن الصوت لم يكن لكائن صغير مذعور... ارتجاج،

ارتجاج. توقف الصوت. ارتجاج، ارتجاج. توقف مرة أخرى. ارتجاج، ارتجاج. ارتجاج، ارتجاج، ارتجاج.

أظن أنني كنت قد أقف هناك، مرتعدًا ومذعورًا، طوال الليل، أو ربما أطلقت قدمي للريح، مع الكلبة، وركضت هاربًا من المنزل بأسره، لولا أنني سمعت صوتًا آخر، صوتًا خافتًا. جاء الصوت من خلفي، ليس خلفي مباشرةً، ولكن من جهة مدخل المنزل، فاستدرت مبتعدًا عن الباب المغلق، وعدت أدراجي، أرتعش، واستندت إلى الحائط حتى غرفة نومي، مسترشدًا بضوء القمر الخافت الذي انبعث منها إلى ظلام الممر. كانت الكلبة تمشي أمامي.

لم أجد شيئًا في الغرفة، السرير كما تركته، لم يحدث أي تغيير. أدركت بعد ذلك أن الصوت لم يكن آتيًا من داخل الغرفة، بل من خارجها، من خارج النافذة. فتحت النافذة بقدر ما سمحت أخشابها العتيقة، ونظرت إلى الخارج، ها هي المستنقعات، فضية، فارغة، ومياه الخليج، منبسطة مثل مرآة ينعكس عليها القمر معكوسًا. لا شيء، لا أحد. غير أني سمعت صرخةً، قادمةً من بعيد مثل موجة بعيدة جدًّا، حتى إنني تساءلت إذا كانت تلك مجرد ذكرى أعيشها من جديد، كانت صرخة الطفل، ولكن لا، لم تكن سوى صوت النسيم الهادئ وهو يهز سطح المياه، فيُجعِّده، ثم يمر على أعواد البوص الجاف، ولا شيءَ آخر.

شعرت بجسد دافئ على قدمي، فنظرت إلى الأسفل، ورأيت أنها سبايدر، قد اقتربت مني جدًّا وراحت تلعق جلدي، وحين مسحت عليها، أدركت أنها قد هدأت مرةً أخرى، جسدها مرتخٍ، وأذناها غير منتصبتين. أصغيت السمع، فلم أسمع شيئًا على الإطلاق في المنزل. بعد برهة، عدت مرة أخرى عبر الممر إلى الباب المغلق. جاءت سبايدر معي بابتهاج، ووقفت مطيعةً هناك تنتظر انفتاح الباب. وضعت رأسي قريبًا من الخشب، لا شيء، صمت مطبق. وضعت يدي على مقبض الباب، وترددت حين شعرت بقلبي ينبض بقوة كأنني في سباق، ولكني سحبت أنفاسًا عميقة، وحاولت فتح الباب. لم ينفتح، رغم صوت قرقعة الخشب التي ملأت أصداءها الغرفة في الداخل، كما لو أنه لا توجد أي سجادة على أرضيتها. حاولت مرة أخرى، ودفعته إلى الداخل بكتفي قليلًا، ولكنه لم يستسلم لمحاولاتي.

في النهاية، عُدت إلى سريري، وقرأت فصلين جديدين من رواية والتر سكوت، ولكني لم أتمكن من التركيز فيما أقرأ، ثم أطفأت المصباح. كانت سبايدر قد استقرت على السجادة، وكانت الساعة تشير إلى ما بعد الثانية صباحًا.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن أتمكن من النوم.

كان أول ما لاحظته في صباح اليوم التالي، هو تغيير الطقس. فور أن استيقظت، قبل الساعة السابعة بقليل، شعرت أن الهواء قد أصبح رطبًا، وأكثر برودةً، وحين نظرت خارج النافذة، رأيت بالكاد الحد الفاصل بين المياه والأرض، بين المياه والسماء؛ اصطبغ كل شيء باللون الرمادي، وحط سحاب كثيف على المستنقعات، وامتلأ الهواء بالرذاذ. لم يكن يومًا مناسبًا لرفع المعنويات، وشعرت بقلق وخمول، خصوصًا بعد ما حدث في الليلة السابقة. انطلقت سبايدر تنزل السلالم بحماس

وبهجة، وسرعان ما أشعلت نيران المدفأة مرةَ أخرى، وأشعلت سخّان المياه، تحممت وتناولت إفطاري، ثم بدأت أشعر بنفسي مجددًا مثلما أكون في الأيام العادية، حتى إنني عدت مرةً أخرى إلى الأعلى، وعبرت الممر الطويل إلى باب الغرفة المغلقة، ولكن لم يكن هناك أي صوت غريب، لا صوت على الإطلاق داخلها.

عند التاسعة، خرجت، وأخذت العجلة، وانطلقت أقودها بقوة، قاطعًا المسافة عبر المسار ثم طريق الريف متجهًا إلى (كرثين)، تركض سبايدر خلفي، ومن حينٍ لآخر، تنحرف باتجاه بقعة ما، كي تطارد حيوانًا ما مرَّ أمامها عبر الحقول.

طلبت من زوجة مالك النُزُل أن تملأ السلة بالطعام، واشتريت المزيد من المؤن من أحد المحال. تحدثت مع كليهما، مالك النُزل وزوجته، وكذلك مع السيد جيروم الذي قابلته في أحد الشوارع الجانبية، تحدثت قليلًا وتضاحكت، ولم آتِ على ذِكر (إيل مارش) مطلقًا. كان ضوء النهار، على الرغم من كآبته وخفوته، قد جدَّد مرةً أخرى شجاعتي، وتصميمي، وطرد أبخرة الليلة السابقة. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك رسالة شغوفة من ستيلا، مملوءة بعلامات استنكار لغيابي، وفخر بمسؤولياتي المهنية الجديدة. هكذا عدت بتلك الرسالة الدافئة في جيبي، وقدت العجلة باتجاه المستنقعات والمنزل، أطلق الصافرات من شفتي.

على الرغم من أن وقت الغداء لم يكن قد حان بعد، كان لا بُدَّ من إشعال كل المصابيح في المنزل، كان النهار قد انخفض، والضوء خافت جدًّا، فلم أتمكن من العمل، رغم جلوسي مباشرةً أمام النافذة. نظرت إلى الخارج، فرأيت أن السحاب والرذاذ قد تكاثف، حتى إنني لم أتمكن من الرؤية أبعد من العشب الممتد حتى حافة المستنقع، ومع بداية حلول المساء، بدأ السحاب والرذاذ في الاندماج حتى تشكل منهما الضباب. بدأت أعصابي، حينها، بالاهتزاز قليلًا، فقررت أن أحزم أشيائي وأعود إلى أمان المدينة الصغيرة. اتجهت إلى الباب الأمامي، وخرجت، فالتصقت الرطوبة فورًا بوجهي، وبملابسي، مثل شبكة عنكبوت رقيقة. هبَّت رياح أقوى آنذاك، تمسح سطح الخليج، وتتخلل إلى عظامي ببرودتها الوحشية. ركضت سبايدر لأذرع قليلة في الباحة ثم توقفت ونظرت إلى الوراء ناحيتي، لم تكن قلقة، بل غير واثقة من المشي أبعد من ذلك في هذا الطقس السيئ. لم أكن أرى الأطلال أو حوائط المقبرة القديمة على الجهة الأخرى من الحقل، فقد حجبتها السحب المنخفضة والضباب. ولم أتمكن أيضًا من رؤية المسار، ليس بسبب الضباب، ولكن بسبب المد الذي غمره بالكامل. لن يظهر المسار مرة أخرى إلا متأخرًا في الليل. ليس بإمكاني إذًا العودة إلى (كرثين جيفورد).

أطلقت صفارة مناديًا على الكلبة التي جاءت على الفور بابتهاج، وعدت إلى أوراق السيدة درابلو. حتى الآن، لم أجد إلا حزمةً واحدةً نحيلةً من المستندات والرسائل التي بدت مثيرة للاهتمام، فقررت أن أمنح نفسي الليلة بعد العشاء، التسلية المحتملة من قراءة تلك الأوراق. حتى يحين ذلك الوقت، قمت بإفراغ عدة أكوام من النفايات، وملأني مشهد الصناديق والأدراج الجديدة الفارغة بالبهجة، ولكن مشهد المزيد من الأدراج والصناديق الممتلئة، غير المصنفة، أصابني بالانقباض مرةً أخرى.

كانت أولى أحزمة الرسائل، مربوطة بشريط أرجواني صغير، ومكتوبة بنفس خط اليد في الفترة بين فبراير قبل حوالي ستين عامًا وصيف العام الذي يليه. كانت مجموعة من تلك الرسائل مرسلةً من عزبة في قرية، أتذكر أني رأيتها على خريطة للمنطقة، تبعد عن (كرثين جيفورد) حوالي عشرين ميلًا، أما المجموعة التي تليها فمرسلة من مسكن في الريف الأسكتلندي، شمال إدنبرة. جميع الرسائل موجهة إلى «عزيزتي آليس» أو أعز الناس آليس»، وتحمل معظمها توقيع «ج»، وبعضها يحمل توقيع «جينيت». كانت رسائل قصيرة، مكتوبة بلغة مباشرة وساذجة إلى حدٍّ ما، وتروي حكايةً مؤثرةً، ومألوفة. الكاتبة، امرأة شابة ومن الواضح أنها إحدى قريبات السيدة درابلو، غير متزوجة ولديها طفل. في البداية، كانت ما تزال تعيش في منزل والديها، ولكن بعد ذلك، تم إبعادها. لا توجد أي إشارة واضحة لوالد الطفل، ما عدا إشارات قليلة إلى «ب». «ب لن يأتي إلى هنا». و: «أظن أن ب قد أُرسِلَ إلى الخارج». في اسكتلندا، ولدت تلك الشابة هذا الطفل، وكتبت عنه على الفور بعاطفة يائسة قوية. انقطعت الرسائل لبضعة أشهر، ولكن حين بدأت مرةً أخرى، كانت في البداية مكتوبة بلغة احتجاج عاطفية غاضبة، ثم لاحقًا، بلغة هادئة وإذعان لاذع. كان هناك ضغط عليها من أجل أن تتخلى عن الطفل، أن تعرضه للتبني، ولكنها رفضت، وقالت مرارًا ومرارًا أنهما «لن يفترقا أبدًا».

«إنه ابني، لماذا لا يحق لي الاحتفاظ بما هو لي؟ لن يذهب إلى غرباء. سأقتله وأقتل نفسي قبل أن أتركه يذهب».

ثم تغيرت لهجتها بعد ذلك.

«ما الذي يمكنني فعله غير ذلك؟ إنني بلا حيلة. يمكنني أن أحتمل فراقه إذا كنتِ، أنتِ و'م'، من سيأخذه»، كتبت بعد ذلك: «أظن أنه لا مفر من ذلك».

كانت الرسالة الأخيرة مكتوبة بخط صغير متزاحم: «أحبيه، اعتني به كما لو كان ابنك، ولكنه ابني، لن يكون ابنك أبدًا. اعذريني. أظن أن قلبي سينكسر. 'ج'».

في نفس حزمة الأوراق، وجدت مستندًا بسيطًا، كتبه محام، ينص على أن ناثانيال بيرستون، طفل جينيت هامفري الرضيع، قد أصبح ابنًا بالتبني لمورجان توماس درابلو، مالك منزل (إيل مارش) في (كرثين جيفورد)، وزوجته آليس. ووجدت ثلاثة مستندات أخرى ملحقة بذلك المستند، أولها: خطاب ترشيح من السيدة 'م'، من منطقة (هايد بارك جيت)، ترشح فيه مربية أطفال اسمها روز جود.

قرأت الخطاب ووضعته جانبًا، وكنت على وشك فتح المستند الذي يليه، كان عبارةً عن ورقة مطوية، حين رفعت نظري فجأة، بعد أن أعادني صوت مفاجئ إلى الحاضر.

كانت سبايدر تقف عند الباب، تزوم بنفس الأنين المنخفض من الليلة السابقة. نظرت تجاهها، فرأيت شعر عنقها منتصبًا. جلست للحظات مرتعدًا، غير قادر على الحركة، ثم تذكرت قراري بمطاردة أشباح (إيل مارش)، ومواجهتها، لأني كنت متأكدًا - أو قد كنت متأكدًا في ضوء النهار - أن هروبي من تلك الأشياء سيدفعها إلى

مطاردتي أكثر وتعقب أثري، وستزداد قدرتها على التحكم بي. وهكذا وضعت الأوراق جانبًا، وقفت على قدمي، واتجهت بهدوء إلى الباب المفتوح، باب الغرفة الصغيرة التي كنت أجلس بها.

على الفور، انطلقت سبايدر كأنها تلاحق أرنبًا بريًا، واتجهت إلى السلم بينما ما تزال تزوم، ثم سمعت صوت أقدامها على أرضية الممر الطويل في الطابق العلوي، ثم توقف الصوت. كانت قد اتجهت إلى الباب المغلق، وكان بإمكاني أن أسمع من هنا، من الدور الأرضي، ذلك الصوت مجددًا، الإيقاع الخافت الغريب - ارتجاج، ارتجاج. توقف. ارتجاج، ارتجاج. توقف. ارتجاج، ارتجاج...

ذهبت إلى المطبخ والغرفة الملحقة به بحثًا عن أي أداة ثقيلة أو مطرقة أو أي شيء، كنت مصممًا على كسر ذلك الباب والدخول إذا استطعت، وتحديد سبب ذلك الصوت. ولكني لم أجد شيئًا مناسبًا هناك. تذكرت أن هناك فأسًا خشبيًا في المبنى الملحق حيث وجدت مخزون الحطب. فتحت الباب الخلفي، وسحبت مصباحي معي، وخرجت.

ما زال الضباب والرذاذ الرطب في الهواء، وإن لم يكن في كثافة الضباب في الليلة التي عبرت فيها المسار إلى هنا. كان ظلامًا قاتمًا: لا وجود للضوء القمر أو أي نجوم مرئية، فتعثرت بحثًا عن طريقي إلى المخزن، بالكاد يساعدني شعاع المصباح الذي أحمله.

فور أن حدَّدتُ مكان الفأس، واتخذت طريق العودة إلى المنزل، سمعت صوتًا، وحين سمعته قريبًا جدًّا حتى ظننت أنه على بُعد أذرع قليلة من المنزل، استدرت، وبدلًا من العودة، اتجهت سريعًا إلى الباب الأمامي متوقعًا أن أجد زائرًا على الباب.

ما إن وصلت إلى الحصى، حتى وجَّهت مصباحي في الظلام باتجاه المسار، من هناك، من هناك جاء صوت حوافر حصان، وطقطقة عربة خشبية. ولكني لم أرَ شيئًا. ومرة أخرى، أدركت مذعورًا أنه لا يوجد أي زائر - أو على الأقل لا وجود لأي زائر حقيقي، بشري - لم يكن كيكويك. بدأ الصوت يأتي من اتجاه مختلف الآن، يبدو أن العربة والحصان قد تركا المسار وبدآ في عبور المستنقعات المفتوحة.

وقفت مرتعدًا بشكلٍ مخيفٍ، مصغيًا في المسافة الضبابية الغائمة، محاولًا استبانة أي اختلاف بين ذلك الصوت وصوت عربة حقيقية. لم يكن هناك أي اختلاف. لو أمكنني الركض إلى هناك، لو أمكنني رؤية طريقي، لا بُدَّ أنني كنت سأتمكن من الوصول إليها، وتسلقها، والتصدي لقائدها. ولكن في الحقيقة، لم يكن بإمكاني فعل أيٍّ من ذلك، ما عدا الوقوف، الوقوف جامدًا مثل عمود، متصلبًا بالرعب، وفي نفس الوقت تغلي داخلي الهواجس القلقة والخيالات والمشاعر.

ثم أدركت أن الكلبة قد نزلت، وأنها الآن تقف بجواري على الحصى، جسدها ساكن تمامًا، أذناها منتصبتان، تواجه المستنقع ومصدر الصوت. كانت العربة تتجه بعيدًا الآن، وأصوات عجلاتها تخبو، ثم جاء صوت ارتطام بالماء، وصوت وحل متحرك. إن الأمر يحدث، العربة تغوص مرتعدة، العربة بكاملها عالقة في الرمال

المتحركة، تغرق، تغرق، ومرت لحظة رهيبة حين بدأت المياه تغلق عليها، تبتلعها، ثم فوق كل ذلك، فوق معاناة الحصان وصراعه، كان الطفل يصرخ، يعلو صراخه، يعلو إلى صيحات رعب، ثم يختنق ببطء ويغرق، حتى حل الصمت أخيرًا.

ثم لا شيء آخر، ما عدا صوت تيار المياه البعيد. كان جسدي ينتفض بالكامل، وفمي جافًا، وكفي تؤلمني في البقعة التي غرزت فيها أظافري، بينما وقفت بلا حيلة أستمع إلى تتابع تلك الأصوات المريعة، ستتكرر تلك الأصوات في رأسي منذ تلك اللحظة آلاف المرات.

لم يكن لدي أدنى شك في أن العربة والحصان والطفل، لم يكونوا حقيقيين، وأن مسيرتهم الأخيرة باتجاه المستنقعات، واختفاءهم في تلك الرمال المتحركة البشعة، لم يحدث أبدًا على بُعد مئة ذراع مني في ذلك الظلام، كنت متأكدًا من ذلك تمامًا الآن. ولكني كنت متأكدًا أيضًا بنفس القدر، أن في أحد الأيام الحقيقية، لا أدرى متى بالضبط، وقعت تلك الأحداث المريعة، هنا في (إيل مارش). عربة يجرها حصان ويقودها أحد الأشخاص، بصبحة طفل، ابتلعها المستنقع، وغرقت خلال لحظات قليلة. ملأتني تلك الفكرة، مجرد الفكرة، ناهيك عن هذا التكرار الشبحي للحادثة برمتها، بقلقٍ لا يمكنني تحمُّله. وقفت أرتعش، وأشعر بالبرد بسبب الضباب والرياح الليلية، وبسبب العرق الذي كان يبرد سريعًا على جسدي.

ثم بعد ذلك، تراجعت الكلبة سبايدر بعض خطوات إلى الوراء، انتفش شعرها وزاغت عينها، ورفعت قدمها الأمامية عن الأرض، ثم بدأت بالعواء، عواءً مرتفعًا طويلًا، ومؤلمًا مخيفًا.

في النهاية، لم يكن أمامي سوى حملها إلى داخل المنزل، بعد أن رفضت التحرك مطلقًا رغم نداءاتي لها. كان جسدها متجمدًا بين يديّ، وكان واضحًا أنها في حالة قلق، وحين وضعتها على أرضية الصالة، اقتربت من قدمي والتصقت بها.

بشكل مثير للفضول، كان خوفها هو ما أقنعني بضرورة أن أستعيد التحكم في نفسي، مثلما قد تشعر أم بواجبها في أن تضع قناع الشجاعة من أجل أن تُطَمئِن صغيرها المرتعد. لم تكن سبايدر سوى كلبة، ولكني شعرت رغم ذلك، بواجبي في تهدئتها وطمأنتها، وتمكنت أثناء فعل ذلك من تهدئة نفسي واستجماع قوتي الداخلية. ولكن بعد لحظات قليلة من سماحها لي بالمسح عليها وتهدئتها بيدي، ابتعدت عني فجأة، تأهبت مرة أخرى، وبدأت تزوم، ثم اتجهت إلى السلم. تبعتها بسرعة، وأشعلت كل الأضواء الممكنة في طريقي، وكما توقعت، وجدتها قد اتجهت إلى الممر المؤدي إلى الغرفة المغلقة في نهايته. كان بإمكاني الآن سماع الصوت بالفعل، ذلك الصوت المثير للجنون، صوت الارتجاج المألوف الذي عذبني لأنني لم أتمكن بعد من معرفة سببه.

كنت أتنفس بسرعة أثناء ركضي باتجاه الركن، وقلبي ينتفض بجنون داخل قفصي الصدري. ولكن، لو أن ما شعرت به بسبب ما حدث حتى الآن في ذلك المنزل، هو الخوف، فإن ما شعرت به حين وصلت إلى نهاية الممر ورأيت ما رأيته هناك، هو الرعب، لقد بلغ خوفي في تلك اللحظة مستوى جديدًا، حتى ظننت لدقيقة كاملة، أنني

سأموت بسبب هذا الرعب، بل ظننت أنني أموت بالفعل، ولم أستطع أن أتخيل إمكانية أن يحتمل أي شخص صدمةً كتلك، ويظل حيًّا بعدها، ناهيك عن البقاء واعيًا بما يجري حوله.

كان باب الغرفة التي جاء منها الصوت، الباب الذي كان مغلقًا بإحكام ولم أتمكن من كسره، الباب الذي لم يكن له مفتاح - كان هذا الباب مفتوحًا، مفتوحًا على مصراعيه.

خلف الباب، تقبع غرفة في ظلام دامس، ما عدا الذراع الأول من مدخلها مباشرةً حيث وصل ضوء خافت من المصباح الخارجي في الممر، وانعكس على أرضية بنية لامعة. في الداخل، صار بإمكاني سماع الصوت، الذي أصبح أعلى بسبب الباب المفتوح الآن، بالإضافة إلى صوت الكلبة، تتحرك بسرعة في أرجاء الغرفة، وتتشمم، تتشمم بقلق، أثناء تجولها.

لا أعرف كم مرَّ من الوقت وأنا أقف هناك مرتعدًا، مرتعشًا، مملوءًا بهلع بالغ. فقدت كل إحساس بالوقت، وبالواقع من حولي، واحتل عقلي ارتباك متقلب، أنصاف أفكار ومشاعر، خيالات أطياف وأشخاص حقيقين دخلاء، أفكار عن القتل والعنف، وكل أنواع المخاوف المريعة. أثناء كل ذلك، ظل الباب مفتوحًا على مصراعيه، واستمر الصوت، صوت تأرجح. نعم. لقد استنتجت ذلك أخيرًا، لقد أدركت أخيرًا طبيعة الصوت القادم من الغرفة، أو على الأقل كان ذلك هو ما تذكرته بسبب هذا الصوت: تأرجح. إنه صوت أخشاب الكرسي المتأرجح الخاص بمربيتي، حين كانت تجلس بجواري كل ليلة في طفولتي بينما أذهب إلى النوم، تأرجح، تأرجح. في بعض الأوقات، حين أكون مريضًا أو مصابًا بالحمى، أو استيقظت بسبب كابوس ما، كانت تأتي المربية أو تأتي أمي إليَّ، تحملني وتتأرجح بي في الكرسي حتى أهدأ وأنام مرةً أخرى. لم يكن الصوت الذي كنت أسمعه طوال الوقت، سوى ذلك الصوت الذي أتذكره من تلك الطفولة البعيدة، من ذلك الوقت قبل أن أصبح قادرًا على تذكر أي شيء آخر. لقد كان الصوت الذي يعني الارتياح والأمان، السلام والطمأنينة، ذلك الصوت المنتظم، الإيقاعي، في نهاية اليوم، الذي كان يهودني حتى النوم، ويُدخلني إلى أحلامي، الصوت الذي يعني أن أحد الشخصين الأقرب لي في هذا العالم، الأحب إلى قلبي، قريب بجواري. وهكذا بينما أقف في الممر المعتم، أستمع، بدأ الصوت يؤثر عليَّ بذات الطريقة، حتى شعرت كأنني منوم تحت تأثيره، دخلت في حالة من النعاس والاسترخاء، وبدأت المخاوف والتوترات التي انفجرت في جسدي قبل قليل، بالتلاشي، كنت أتنفس ببطء، وبعمق، وشعرت بالدفء يتسلل إلى أطرافي. شعرت أن لا شيء يمكن أن يقترب من أذيتي أو إخافتي، وأنَّ لدي حاميًا، حارسًا، قريبًا جدًّا. ربما بالفعل لدي حارس، ربما كل ما تعلمته في طفولتي عن الأرواح السماوية التي تحيط بنا وتحمينا وتحفظنا، حقيقي بالفعل، وربما لم يكن الأمر أكثر من أن الذكريات التي أعادها صوت التأرجح، إيجابية جدًّا وقوية جدًّا حتى إنها غلبت وأبعدت كل ما هو شيطاني ومخيف وشرير.

مهما يكن الوضع، أعرف أنني الآن أمتلك الشجاعة الكافية لكي أدخل تلك الغرفة، وأواجه أيًا ما كان داخلها، وهكذا، قبل أن يهتز قراري، ويعود خوفي، سرت إلى

الداخل، بثبات وإصرار وجراءة، بقدر ما تمكنت. فور دخولي، مددت يدي إلى زر إشعال المصباح على الحائط، ولكني حين ضغطت عليه، لم يأتِ أي نور، فأشعلت المصباح الذي أحمله ووجهته إلى السقف، رأيت أنه لا يوجد مصباح في المقبس. كان النور من المصباح الذي أحمله قويًا ومضيئًا كفاية، أمكنني من الرؤية. كانت سبايدر تصدر صوتًا منخفضًا من أحد الأركان، ولكنها لم تأتِ إليَّ وأنا أدخل الغرفة. نظرت من حولي ببطء شديد وحذر.

لم تكن الذكرى التي مرت في عقلي قبل قليل، إلا تلك الغرفة نفسها، الغرفة التي ينتمي إليها الصوت، لقد كانت غرفة طفل، وبها سرير في أحد الأركان، سرير صغير منخفض يشبه السرير الذي نمت فيه في طفولتي، وبجواره في مواجهة المدفأة، كرسي هزاز، هو أيضًا نفسه أو على الأقل يشبه الكرسي المنخفض، ذا الظهر الطويل المفرغ، المصنوع من خشب داكن - ربما أخشاب الدردار، وزلاجته الواسعة المهترئة. بينما وقفت أحدق فيه، أحدق حتى لم يعد بوسعي التحديق أكثر، ظل يتأرجح بهدوء، وأخذت سرعته بالانخفاض، بنفس الطريقة التي سيتأرجح بها أيُّ كرسي هزاز آخر، لفترة بعد قيام شخص منه.

ولكن لم يكن أحد هناك، كانت الغرفة فارغة، وليس هناك مجال لأي شخص، أن يخرج من هنا إلى الممر دون أن يلقاني، دون أن أضطر إلى إفساح الطريق له لكي يمر.

وجهت المصباح الذي أحمله سريعًا على الحوائط من حولي، رأيت المدخنة والمدفأة، يوجد نافذة مغلقة بإحكام، عليها ألواح خشبية، مثل جميع غرف الأطفال، لكي تمنع الأطفال من السقوط. لم يكن هناك أي أبواب أخرى بالداخل.

تأرجح الكرسي بوتيرة أقل، حتى أصبحت حركته طفيفة جدًّا، بالكاد يمكنني رؤيتها أو سماعها، ثم توقف تمامًا وحلَّ الصمت التام.

كانت الغرفة مجهزةً بجميع أنواع الأثاث، معدة ومُرتبة بإتقان، كما لو أن ساكنها قد سافر ليوم أو يومين، أو خرج لتوه ليتمشى قليلًا. لا وجود للرطوبة والعراء، والأجواء المهجورة التي تسيطر على الغرف الأخرى في (إيل مارش). استكشفت الغرفة بحذرٍ شديدٍ وعناية، كنت أحبس أنفاسي، وأتفحص السرير، كان مرتبًا وعليه كل أغراضه من وسائد وملاءة وأغطية. بجوار السرير، يوجد طاولة صغيرة عليها حصان خشبي صغير للغاية، ومصباح ليلي فيه شمعة نصف محترقة، ما زال في مكانه وما زال في إنائه ماء. وجدت في أدراج الدولاب والصناديق ملابس، ملابس تحتية، وملابس نهارية، وملابس رسمية، وملابس ألعاب، ملابس طفل يبلغ ست أو سبع سنوات، جميلة، مطوية بعناية، على نفس الطراز الذي كان والداي يرتديانه في طفولتيهما، في تلك الصور الرسمية التي ما زلنا نحتفظ بها في المنزل، منذ ستين عامًا أو أكثر.

كما توجد ألعاب طفل، ألعاب كثيرة، مُرتبة بدقة ومُعتَنى بها باهتمام بالغ، صفوف من الجنود المعدنية، مُرتبة في فيالق، ومزرعة بأسوار وحظائر ملونة، وأكوام تبن، وكومة ذرة خشبية صغيرة على لوحة كبيرة. وتوجد أيضًا سفينة كاملة بأشرعتها

القماشية وصواريها، مصفرة قليلًا بفعل الزمن، وسوط ذو حزام جلدي، مُلقى بجوار بلبل مصقول، ورقع ألعاب اللودو والهالما والداما والشطرنج، وأحاجٍ لمشاهد من الريف والسيرك ولوحة 'صبا ريلي'، وفي صندوق خشبي صغيرٍ، حمار مصنوع من الجلد، وقطة وأربع قطط صغيرة مغزولة من الصوف، ودب غزير الفراء، ودمية صلعاء ذات رأس مصنوع من الخزف ترتدي زي البحارة. كان الطفل يمتلك أيضًا أقلامًا وفرشاة، وزجاجات حبر ملوَّن، وكتاب أغاني أطفال، وآخر قصص إغريقية، وإنجيلًا وكتاب صلوات، ومجموعة نرد ومجموعتين من أوراق اللعب، وبوق منمنم، وصندوق موسيقى ملوَّنًا من سويسرا، ودمية ذات أطراف مفصلية من القصدير لمصارع سامبو.

أمسكت ببعض الألعاب، ولمست بعضها، وشممت بعضها. لا بُدَّ أن نصف قرن قد مرَّ على وجود تلك الألعاب هنا، ومع ذلك، تبدو كما لو أن أحدهم لعب بها هذا المساء، ثم أعاد ترتيبها. لم أعد خائفًا الآن، بل كنت مرتبكًا، شعرت بشعور غريب، على غير عادتي، وتحركت في أنحاء الغرفة كما لو كنت في حُلم. ولكن على الأقل للحظة، لم يعد هناك ما يخيفني أو يؤذيني، لم يعد هناك سوى الفراغ، والباب المفتوح، والسرير المُرتب، وجو مثير للفضول من الحزن، كأن شيئًا ضائعًا، مفقودًا، حتى إنني نفسي شعرت بالوحشة، بالأسى في قلبي. كيف يمكنني تفسير ذلك؟ لا أستطيع، ولكني أتذكر ذلك الشعور، أتذكره بالضبط كما شعرت به آنذاك.

كانت الكلبة جالسةً الآن على السجادة البالية بجوار سرير الطفل. في نهاية المطافِ، خرجت، لأنني كنت قد تفحصت كل شيء، ولم أستطع تفسير أي شيء، ولم أُرِد البقاء في ذلك الجو الحزين لوقت أطول. خرجت بعد أن ألقيت بنظرة أخيرة بطيئةَ، وأغلقت الباب خلفي.

لم يكن الوقت متأخرًا، ولكن لم يعد لدي أي طاقة لاستكمال قراءة أوراق السيدة درابلو، كنت مستنفذًا ومرهقًا. وكانت كل تلك المشاعر التي ملأتني ثم انسكبت مني، قد تركتني مثل شيء مُلقى على شاطئ هادئ بعد نهاية العاصفة.

أعددت لنفسي مشروبًا من الماء الساخن والبراندي، وقمت بجولتي على المنزل، أطفئ النيران وأغلق الأبواب، قبل الذهاب إلى السرير لأقرأ في رواية السير والتر سكوت.

ولكن قبل أن أقوم بتلك الجولة مباشرةً، سلكت الممر الذي يؤدي إلى غرفة الطفل، كان الباب ما يزال مغلقًا كما تركته. أصغيت السمع، ولكن لم أسمع أي صوت على الإطلاق بالداخل. لم أُرِدْ خرق الصمت والفراغ مرةً أخرى، فعدت أدراجي بهدوءٍ، وذهبت إلى غرفتي في مقدمة المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٠)

سآتيك حين تطلق صفيرًا

اشتدت الرياح أثناء الليل، فسمعتها أثناء قراءتي في السرير، وهي تضرب كل حين على النافذة. ولكني حين استيقظت فجأة في ساعات الصباح المبكر، كانت الرياح قد اشتدت بقوة، وشعرت كأن المنزل سفينة في البحر، تهشمه العاصفة التي جاءت تزأر عبر المستنقعات. كانت النوافذ تصدر صريرًا في أرجاء المنزل، وصوت أنين قادم من كل المداخن، وصفير من كل الفتحات والشقوق في المنزل.

في البداية، روعتني تلك الأصوات، ولكن بينما تمددت ساكنًا أستجمع عقلي، فكرت في الزمن الطويل الذي قضاه منزل (ايل مارش) واقفًا في تلك المنطقة، ثابتًا مثل فنار، وحيدًا ومكشوفًا، متحملًا عواصف الشتاء، عاصفة بعد عاصفة، بمطرها الغزير وثلوجها وزوابعها، وبدا من غير المحتمل أن ينهار الليلة. بعد ذلك، بدأت ذكريات الطفولة تعود مرةً أخرى، فغرقت في الحنين إلى تلك الليالي التي تمددت فيها، في دفء وأمان السرير في غرفتي أعلى منزل العائلة في (ساسيكس)، أسمع الرياح تزأر من حولي مثل أسد، وتعوي عند الأبواب، وتضرب النوافذ، ولكن لا تقوى على الوصول إليَّ. تمددت في السرير، وانزلقت في تلك الحالة المبهجة، شِبه الحالمة، ما بين النوم والاستيقاظ، أسترجع بوضوح ذكريات الماضي بكل أحاسيسها وانطباعاتها، حتى شعرت وكأني قد عدت طفلًا صغيرًا من جديد.

ثم جاءت إلى أذني من مكانٍ ما في ذلك الظلام المليء بأصوات العاصفة، صرخةٌ، قذفت بي إلى الحاضر، وقذفت بكل السَّكِينة بعيدًا.

أصغيت، ولكن لا شيءَ، ليس سوى هيجان الرياح، مثل عفريت، تضرب وتقرقع على كل النوافذ وأطرها القديمة غير المحكمة. ثم، نعم، مرةً أخرى، صرخة، تلك الصرخة المألوفة، صرخة اليأس والرعب، صرخة طلب المساعدة التي أطلقها طفل من مكان ما بالخارج في تلك المستنقعات.

لا وجود لذلك الطفل، أعرف ذلك، كيف يمكن أن يوجد هذا الطفل؟ ولكن أيضًا، كيف يمكنني أن أتمدد هنا وأتجاهل تلك الصرخة، حتى لو كانت صرخة شبح ميت منذ زمن؟

بعد عدة لحظات، قمت. سأذهب إلى المطبخ في الأسفل، وأعدُّ لنفسي مشروبًا، وأشعل نار المدفأة قليلًا وأجلس بجوارها محاولًا، محاولًا أن أتجاهل ذلك النداء الصارخ، الذي لا أستطيع أن أفعل له أي شيء، ولم يستطع أحدٌ أن يفعل له أي شيء... لكم سنة؟

في طريقي إلى الخارج باتجاه السلم، وسبايدر تتبعني مباشرةً، وقعَ أمران معًا. تهيَّأ لي خيال شخصٍ يمر في تلك اللحظة بجواري، في طريقه من أعلى السلم إلى إحدى الغرف الأخرى، ثم انطفأت الأنوار، في نفس تلك اللحظة التي هبت فيها دفقة رياح

قوية، واهتز المنزل تحت وقعها. لم أكن قد أخذت المصباح معي قبل خروجي من الغرفة، تركته ملقًى على الطاولة بجوار السرير، وها أنا الآن أقف في الظلام الحالك، لا أعرف أي اتجاه أسلك.

وهذا الشخص الذي مرَّ بجواري، مَن يوجد معي الآن في المنزل؟ لم أرَ أحدًا، أو أشعر بشيء، لم يكن هناك أي حركة، ولم تلمس ذراعه ذراعي، لم يتحرك الهواء، ولم أسمع وَقْع خطواتٍ حتى. لم يكن لدي سوى شعور يقيني بمرور ذلك الشخص بجواري، وأنه ذهب بعيدًا في الممر، بعيدًا في الممر المؤدي إلى غرفة الطفل، التي كان بابها مغلقًا بإحكام، ثم انفتح بلا أي تفسير.

للحظة، بدأت بالفعل أظن بوجود شخص بالتأكيد - كائن بشري آخر - يعيش هنا في المنزل، شخص يختبئ في غرفة الطفل الغامضة، خرج في الليل ليحصل على بعض الطعام والشراب ويستنشق الهواء. ربما كانت المرأة في الملابس السوداء. هل كان لدى السيدة درابلو أخت عجوز منعزلة، هل تركت خلفها صديقًا مجنونًا لا يعرف عنه أحدٌ شيئًا؟ جالت في رأسي كل أشكال الخيالات الجامحة بينما أحاول يائسًا إيجاد تفسير منطقي لهذا الوجود الذي شعرت به بقوة. ولكن بعد ذلك اختفى. لم يكن هناك أي ساكن حي في منزل (إيل مارش)، غيري وغير كلبة السيد صامويل دايلي؟ أما ذلك الذي رأيته، وسمعته يهز الكرسي، ومرَّ بجواري الآن، وفتح الباب المغلق، لم يكن 'واقعيًا'. لا. ولكن ما هو الواقع؟ في تلك اللحظة، بدأت أشك في الواقع من حولي.

أول ما أحتاجه الآن، هو ضوء. تحسست طريقي عائدًا إلى السرير، ومددت يدي فوقه وأخذت المصباح أخيرًا. تراجعت خطوة للوراء، فتعثرت في الكلبة التي كانت عند قدمي، سقط المصباح، وتدحرج على الأرض، حتى استقر في مكان ما أسفل النافذة، وأصدر صوت ارتطام، وصوت تحطم زجاج مكتوم. سببت، ولكني تمكنت من الزحف على كفيَّ وركبتيَّ حتى وجدته، ضغطت زره، ولكن لا، لم ينبعث الضوء، لقد انكسر المصباح.

للحظة، كنت على وشك الانفجار باكيًا، دموع اليائس والخوف، والغضب والتوتر، كنت في تلك اللحظة أقرب للبكاء أكثر من أي وقت مضى منذ طفولتي. ولكن بدلًا عن البكاء، ضربت الأرضية الخشبية بقبضتي، في نوبة عنف وغضب، حتى ارتجفت.

أعادتني سبايدر إلى عقلي حين حكَّت أظافرها بذراعي، ثم لعقت يدي التي مددتها إليها. جلسنا على الأرض معًا، واحتضنت جسدها الدافئ، سعيدًا بوجودها، ويملأني الخجل من نفسي. أصبحت أهدأ وأكثر ارتياحًا، وبينما تعصف الرياح وتزأر في الخارج، سمعت صرخة الطفل المريعة، تحملها الرياح باتجاهي في هبات متتالية، مرة تلو مرة.

لن أستطيع النوم مرةً أخرى، كنت متأكدًا من ذلك، ولكني لم أتجرأ على النزول إلى الأسفل في ذلك الظلام الحالك، فتحوطني صرخات العاصفة، وتهز أعصابي معرفتي بوجود هذا الشخص الآخر. كان مصباحي قد تعطَّل، لا بُدَّ لي أن أحصل

على شمعة، بعض الضوء، مهما كان خافتًا وضعيفًا، لكي أشعر بالمؤانسة. توجد شمعة قريبة في مكانٍ ما، لقد رأيتها منذ قليل، على الطاولة بجوار السرير في غرفة الطفل.

لوقت طويل جدًّا، لم أتمكن من استجماع شجاعةً كافيةً كي أتمكن من تحسس طريقي، عبر ذلك الممر القصير إلى الغرفة، الغرفة التي أدرك الآن أنها على نحوٍ ما، مركز ومصدر كل تلك الأحداث الغريبة في المنزل. لم أكن أدرك سوى خوفي، ولم أكن قادرًا على اتخاذ قرارٍ، أو التفكير بشكل مترابط، ناهيك عن التحرك، ولكني اكتشفت بالتدريج صِدقَ المقولة: لا يمكن لأي شخصٍ أن يظل في حالة رعب دائم، إما أن تلك المشاعر ستتزايد عليه بتزايد الأحداث المرعبة والأطياف، حتى تستحوذ عليه، فيهرب أو يصاب بالجنون، أو أنه سيصبح أقل توترًا، قليلًا، وأكثر تحكمًا في مخاوفه.

ظلت الرياح تعوي عبر المستنقعات، وتضرب المنزل، ولكن تلك الأصوات لم تكن سوى أصوات طبيعية، أصوات يمكنني تحديدها وتحملها، لأنها لا تستطيع إيذائي بأي طريقة، وكذلك الظلام الذي لم ينقشع، وسيظل محيطًا بكل شيء لساعات قادمة، ولكن لا شيء في الظلام نفسه يمكن أن يخيف شخصًا، أكثر مما يخيفه صوت الرياح العاصفة. لم يحدث شيء غير ذلك. تلاشى إحساسي بوجود شخص آخر تمامًا، وتوقفت صرخات الطفل الخافتة أخيرًا، لم أسمع أي صوت قادم من الخليج، ولم أسمع صوت اهتزاز الكرسي من نهاية الممر، أو صوت أي حركة أخرى. كنت أدعو بينما أجثو على الأرضية والكلبة ملتصقة بي، دعوت أن ينتهي كل شيء، كل ما يجري في المنزل، أو على الأقل أتمكن من استجماع شتات نفسي بالقدر الكافي لمواجهته والتغلب عليه.

الآن، بينما أقف على قدمي غير الثابتة، انتشر الألم في كل أطرافي المتصلبة، لقد كان توترًا هائلًا ذلك الذي يملأ جسدي، ولكني تمكنت أخيرًا من القيام ببعض الحركات. استرحت بشدة حين أدركت أنه لا يوجد شيء، في حد علمي، يجب مواجهته في الوقت الراهن على الأقل، غير تلك الرحلة العمياء في الممر باتجاه غرفة الطفل، لكي أبحث عن الشمعة.

قمت بتلك الرحلة، ببطءٍ شديدٍ، وذعر متزايد، ولكن بنجاح. وجدت طريقي إلى الطاولة بجانب السرير، وأخذت الشمعة في حاملها، أحكمت قبضتي عليها، وبدأت أتحسس طريقي بطول الحائط وحول الأثاث، عائدًا باتجاه الباب.

قلت قبل قليل أن لا شيء غريب آخر وقع في تلك الليلة، لا شيء ملأني بالخوف، غير صوت الرياح وتمام الظلام المحيط، وعلى نحوٍ ما، هذا الكلام صحيح، فقد كانت غرفة الطفل هادئة وفارغة، والكرسي الهزاز ساكنًا وصامتًا، كل شيء، في حدّ علمي، كما كان من قبل. لذلك، لم أعرف حينها بما أفسر ذلك الشعور الذي اجتاحني بينما أدخل الغرفة، لم يكن شعورًا بالخوف، أو الهلع، بل شعور بأسى هائل، وحزن، إحساس بالفقد والفاجعة، توتر مختلط بيائس تام. كان والداي كلاهما على قيد الحياة، ولديَّ أخ واحد، والكثير من الأصدقاء المقربين، وخطيبتي ستلا.

كنت ما أزال شابًا، لم يختبر فاجعة الفقد أو عانى من الحزن الشديد، إلا في حالات حتمية قليلة، مثل فقد عمٍّ أو عمة في أرذل العمر، والأجداد، وبخلاف ذلك لم أكن قد مررت بتجربة موت شخص عزيز. ليس بعد. إلا أنني اختبرت ذلك الإحساس الذي يقترن بموت شخص قريب من قلبي، شخص مرتبطٍ بوجودي نفسه، في تلك الغرفة في منزل (إيل مارش)، اختبرت ذلك الإحساس حقًّا كما يجب أن يكون، فكسرني، عرفت ذلك وقتها، ولكني كنت مرتبكًا وحائرًا، لا أعرف سببًا على الإطلاق لسقوطي في قبضة ذلك الألم اليائس والبؤس. بدا الأمر كما لو أنني أصبحت في ذلك الوقت حين كنت في الغرفة، شخصًا آخر، أو على الأقل، اختبرت مشاعر تنتمي لشخص آخر.

لقد كانت حادثة غريبة ومفزعة، ككل الأحداث الأخرى، المرئية والمسموعة، التي حدثت في الواقع، على مدار الأيام القليلة الماضية.

عندما غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفي، وقفت في الممر مرةً أخرى، سقطت مني تلك المشاعر مثلما تسقط قطعة ملابس وضعتها على كتفي لوقتٍ قصيرٍ، ثم خلعتها، فعدت إلى نفسي مجددًا، إلى مشاعري، وأصبحت أنا من جديد.

عدت بخطوات غير متزنة إلى غرفة نومي، أخرجت أعواد الكبريت التي أحتفظ بها في جيب معطفي مع الغليون والتبغ، وأشعلت الشمعة أخيرًا. وبينما أضع إصبعي في مقبض الحامل القصديري، اهتزت يدي، فارتعشت الشعلة الصفراء، وتراقصت انعكاساتها المجنونة هنا وهناك، على الحائط والباب والأرضية والسقف والزجاج وغطاء السرير، ولكن لم يملأني ذلك بغير الراحة والاطمئنان، وفي نهاية الأمر، اشتعل بريقها بقوة، فأصبحت أقل قلقًا.

نظرت في وجه ساعة يدي، كانت تقترب من الثالثة صباحًا، فتمنيت أن تظل الشمعة تحترق حتى الفجر، الذي سيطلع متأخرًا، كعادته في مثل تلك الأيام العاصفة من نهاية العام.

جلست في السرير، ملفوفًا في معطفي، أقرأ رواية السير والتر سكوت، بقدر استطاعتي في ضوء الشعلة الخافت. لا أعرف إذا كانت الشمعة قد انطفأت قبل أن تتسلل أول خيوط الفجر الرمادية إلى الحجرة أم لا، لأنني كنت قد رحت في نوم عميقٍ دون أن أقصد، وعندما استيقظت، كان اليوم يومًا شتويًا، يغسله المطر. استيقظت مرهقًا وغير مرتاح، وكانت الشمعة قد احترقت حتى آخر قطرة شمع، وانطفأت، وتركت أثرًا أسود على قاعدتها، كما كانت الرواية قد سقطت على الأرض.

مرة أخرى، كان ما أيقظني صوت. وقفت سبايدر عند الباب تحك أظافرها وتزوم، فأدركت على الفور أن ساعات عديدة قد مرت عليها وهي حبيسة بالداخل. قمت وارتديت ملابسي بنشاط، ثم نزلت إلى الأسفل وفتحت الباب الأمامي. كانت السماء متورمة بغيوم المطر، وبدا كل شيء رطب، بلا لون، ومياه الخليج مرتفعة، ولكن لم يكن هناك رياح، فقد كان الهواء خفيفًا وباردًا جدًّا.

في البداية، تسكعت الكلبة على الحصى باتجاه العشب الجاف، يملؤها القلق فلم تنطلق في الأنحاء، بينما وقفت أتثاءب، وأحاول أن أستعيد بعض الدفء والحياة في جسدي، فرحت أضرب ذراعي وأحرك قدمي. قررت أن أرتدي معطفًا وحذاءً طويلًا، وأذهب في جولة نشطة حول الحقل، لكي يصفو رأسي. كنت أستدير عائدًا إلى المنزل، حين جاءني صوت من جهة المستنقعات، بشكل واضح وبلا أدنى شك، سمعت صوت صفير، مثل صفير شخص ينادي كلبًا.

تجمدت سبايدر في مكانها لأقل من ثانية، ثم، قبل أن أتمكن من الإمساك بها، قبل أن أستجمع أفكاري، انطلقت، كما لو أنها تطارد أرنبًا بريًا، ركضت بسرعة مبتعدةً عن المنزل، مبتعدةً عن أمان العشب، باتجاه المستنقعات المبللة. للحظات قصيرة، وقفت مندهشًا، مذهولًا، لا أستطيع التحرك، أحدق، بينما يتضاءل جسد سبايدر في المدى المفتوح. لم أتمكن من رؤية أحد هناك، ولكن الصفير كان حقيقيًا، ليس خدعة من الرياح. ومع ذلك، يمكنني القسم على أنها لم تصدر عن شفاه بشرية. ثم بينما أنظر، رأيت الكلبة تتعثر، ثم تُبطئ، ثم تتوقف أخيرًا، أدركت فزعًا أنها تغرق في الوحل، تحارب لكي تحافظ على توازنها، لكي تحافظ على أقدامها من الانجذاب إلى الأسفل. ركضت كما لم أركض قَطّ في حياتي، لا ألقي بالًا لسلامتي، راغبًا في الذهاب إلى نجدة ذلك الكائن الشجاع الصغير، الكائن الذي أعطاني بهجةً ومواساةً في تلك البقعة الموحشة.

في البداية، كان الطريق صلبًا تحت قدمي، وبرغم أنه مغطى بالطين، تمكنت من الركض بسرعة. كانت الرياح الباردة، القادمة من جهة المستنقع، تضرب على وجهي، وشعرت بعيني تلذع وتمتلئ بالدموع، فاضطررت لمسحها كي أتمكن من رؤية طريقي بوضوح. كانت سبايدر تنبح نباحًا مرتفعًا الآن، خائفة ولكن ما زال بإمكاني رؤيتها، ناديت عليها محاولًا طمأنتها، ثم بدأت أنا أيضًا، أشعر بلزوجة وعدم ثبات الأرض التي أصبحت أكثر وحلًا. غرزت قدمي في الوحل، وعلقت في بقعة سائلة، حتى تمكنت بعد بذل مجهود عظيم، من تحريرها. كانت المياه في جميع الاتجاهات من حولي، موحلة وقاتمة، وأصبحت مياه الخليج الآن مرتفعةً أكثر، وتغمر المستنقع نفسه، فاضطررت إلى الخوض فيها، ولكني أخيرًا وصلت على مقربة من الكلبة، منقطع الأنفاس، تستهلك مني كل خطوة مجهودًا كبيرًا. كانت الكلبة بالكاد تستطيع التماسك، أقدامها ونصف جسدها مغموران تحت الوحل المتحرك، ورأسها مرفوع عاليًا في الهواء، بينما تقاوم وتنبح طوال الوقت. حاولت مرتين أو ثلاث أن أقفز ناحية الكلبة، ولكني في كل مرة، أغوص وأضطر إلى التراجع فجأة كي أحرر نفسي، خوفًا من الغرق، تمنيت لو أن معي عصا أمدها ناحيتها، وأثبتها في الطوق على عنقها وأجذبها. مررت بلحظة يأس تام، وحدي في منتصف المستنقع الهائل، تحت قبة السماء العاصفة، ليس حولي سوى المياه، وهذا المنزل المرعب هو الشيء الوحيد الصلب على مسافة أميال حولي.

ولأني أدرك تمامًا أنني لا أستطيع الاستسلام إلى الهلع، وإلا سأغرق وأفقد حياتي، فكرت حانقًا لوهلة، ثم تمددت بكامل جسدي بحذر على وحل المستنقع، محافظًا على نصف جسدي الأسفل مغروزًا في جزيرة صغيرة من الأرض الصلبة، ومددت

جذعي وذراعي إلى الأمام، بوصة وراء بوصة، ملتقطا أنفاسي بصعوبة، حتى وصلت في اللحظة الأخيرة قبل أن يختفي آخر جزء من جسد الكلبة، وأمسكت بعنقها، سحبت وجذبت وبذلت كل ما أملك من قوة، قوة لم أحلم في حياتي أني أمتلكها، قوة ولدت في تلك اللحظة من الخوف واليأس، ثم بعد وقت من العذاب، بعد أن حارب كلانا ليحافظ على حياته ضد هذا الوحل المتحرك الذي حاول سحْبَنا إلى الأسفل، إلى جوفه، شعرت بقبضتي على فرائها المبلل اللزج، ولحمها المبلل، عرفت أخيرًا أنني أمسكت بها وأنني نجحت. قاومت بأقصى قوة لكي أسحب جسدي إلى الوراء، ناحية الأرض الصلبة، وبينما أقوم بذلك، استرخى جسد الكلبة فجأة، وانتهت الحرب حين سقطت على ظهري على الأرض، ممسكًا بها بقوة، كلانا مبتل بالمياه والوحل، صدري يحترق، ورئتي تكاد تنفجر، وذراعي تتألم ألمًا عظيمًا كأنها قد تمزقت من جسدي، بل هي بالفعل كادت أن تتمزق.

استلقينا مرهقين، نلهث. تساءلت لو أنني سأجد القدرة أبدًا على النهوض، شعرت فجأة بالضعف، والضياع وسط تلك المستنقعات. كانت الكلبة المسكينة تُصدر أصوات اختناق الآن، تحك رأسها بجسدي مرارًا وتكرارًا، كلانا بلا شك خائف، نتألم ألمًا هائلًا، فقد كنت على وشك خنقها بينما أمسك بعنقها بقوة، ولكنها ما تزال على قيد الحياة، وأنا كذلك، وبعد برهة، عاد بعض الدفء إلى جسدينا، وأعاد لنا هذا التوقف القصير بعض الطاقة، فحملت سبايدر مثل طفلة بين ذراعيَّ، وبدأت أعود أدراجي متعثرًا عبر المستنقعات في اتجاه المنزل. بعد عدة خطوات، رفعت عيني، فوقع نظري على النافذة العلوية، النافذة الوحيدة المغلقة بقضبان حديدية، نافذة غرفة الطفل، لمحت شخصًا يقف خلفها. امرأة. تلك المرأة. تنظر مباشرةً باتجاهي.

كانت سبايدر تئن بين يدي، وتكح من حين لآخر، كأنها على وشك التقيؤ. كلانا يرتجف بعنفٍ. لن أعرف أبدًا كيف تمكنت من بلوغ العشب أمام ذلك المنزل، ولكني بلغته، وعلى الفور سمعت صوتًا. كان الصوت قادمًا من الجهة البعيدة من مسار (السبع أرواح)، الذي كان قد بدأ للتو في الظهور بعد أن بدأ المد في الانحسار. لقد كان صوت عربة يجرها حصان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١١)
حزمة رسائل

كان هناك ضوء ساطع، وكنت أحدق فيه - شعرت به يغمرني، ينسكب من خلال عيني، مباشرةً إلى عقلي، فجاهدت كي أدير رأسي بعيدًا، وشعرت برأسي خفيفًا جدًّا، بالكاد يستقر على كتفي، بل يدور، يطفو في الهواء مثل الزغب.

ثم اختفى الضوء فجأة، وحين فتحت عيني مجدَّدًا، عاد العالم العادي والأشياء العادية من حولي. وجدت نفسي مستلقيًا، أستند إلى ظهر أريكة في الغرفة الصباحية، ورأيت وجه السيد صامويل دايلي الكبير الأحمر، يطل عليَّ بقلقٍ بالغ، ويحمل في يده مصباحًا صغيرًا، أدركت أنه بالتأكيد كان يستخدمه لكي يفحص عيني، في محاولة خشنة لإيقاظي.

اعتدلت في الجلسة، ولكن الحوائط بدأت بالتحرك على الفور، والميل إلى الأمام، فاضطررت إلى الاستلقاء مرةً أخرى، شاعرًا بالضعف. بعد ذلك، عاد إلى ذاكرتي كل ما حدث، تسارعت الذكريات بقوة، ملاحقة الكلبة عبر المستنقعات، والصراع من أجل تحريرها، ورؤية المرأة في الرداء الأسود خلف نافذة غرفة الطفل، ثم تلك الأصوات التي جعلت خوفي يتعاظم إلى درجة فقدت معها السيطرة على نفسي وحواسي، فسقطت مغشيًا عليَّ.

«ولكن العربة - العربة والحصان...»

«بالخارج، أمام الباب».

حدقت.

«أحب أن أستخدم تلك العربة من حينٍ لآخر، إنها وسيلة سفر سارة، حين لا يكون هناك داعٍ للإسراع، كما أنها أكثر أمانًا من السيارات على هذا المسار».

«آه». شعرت بدفقات الارتياح تسري في جسدي، حين أدركت حقيقة الأمر، لقد كان الصوت الذي سمعته صوتًا حقيقيًّا لعربة وحصان حقيقيين.

نظر لي بتمعن شديد: «ما الذي كنت تظنه؟»

«أن عربة وحصان...»

«نعم؟ أكمل؟»

«لقد سمعت أصواتًا، صوت شخص آخر».

قال بهدوء: «ربما هو كيكويك».

اعتدلت جالسًا بحذر أكبر، فظلت الغرفة ثابتة: «لا، لا».

«على مهلك».

«لقد أصبحت أفضل، أنا أفضل، كان...»، ثم مسحت جبيني، «أريد أن أشرب».

«بجوارك، ها هو».

استدرت، فوجدت إبريقَ ماءٍ وكأسًا، شربت حتى ارتويت. وبدأت أشعر بأنني أكثر انتعاشًا، وأعصابي أكثر ثباتًا. أدرك السيد دايلي ذلك، فتراجع بعض خطوات من جانبي، واتجه إلى كرسي في الجهة المقابلة وجلس.

قال أخيرًا: «لقد كنت مشغولًا بالتفكير فيك، لم أكن سعيدًا بذلك، كان الأمر قد بدأ يثير أعصابي».

«أليست الساعة ما تزال مبكرًا في الصباح؟ - إنني مرتبك قليلًا...»

مبكرًا بالفعل، ولكني لم أستطع النوم، لقد كنت مشغولًا بالتفكير فيك، كما قلت».

«يا له من أمر غريب!»

«حقًّا؟ ليس هكذا يبدو لي الأمر، ليس غريبًا على الإطلاق».

«لا».

«لقد كان قدومي فكرة جيدة».

«نعم بالفعل، أنا ممتن للغاية، لا بُدَّ أنك - ماذا؟ حملتني إلى هنا؟ لا أتذكر أي شيء مما حدث».

«لقد حملت على كتفي أشياء أثقل منك من قبل. لست سوى لحم قليل على عظام».

«أنا في غاية السعادة لرؤيتك يا سيد دايلي».

«بالطبع، فلديك سبب وجيه لتشعر بالسعادة».

«نعم، صحيح».

«غرق الكثير من الناس في ذلك المستنقع من قبل».

«نعم، نعم، أعرف ذلك الآن، لقد شعرت وكأن شيئًا يسحبني إلى الأسفل، ويسحب الكلبة معي». ثم حدقت فيه قائلًا: «سبايدر...»

«سبايدر هنا، لا تقلق».

نظرت إلى حيث أومئ، فوجدت الكلبة مستلقية على السجادة بيننا، رفعت ذيلها حين سمعته يردد اسمها، ولكنها ظلت مستلقية، ما زال الوحل عالقًا على فرائها، في كتل وخطوط، ويسيل غليظًا على ساقها. بدت مرهقة وضعيفة مثلي تمامًا.

«حين تتحسن حالتك قليلًا، من الأفضل أن تأخذ ما تحتاجه من هنا، لكي نرحل».

«نرحل؟»

«نعم، لقد جئت إلى هنا لكي أرى كيف حالك في تلك البقة المجهورة. لقد رأيت. من الأفضل الآن، أن تعود معي، لكي تستعيد عافيتك».

لم أجبه لبعض اللحظات. استلقيت، وعدت إلى سلسلة الأحداث في ذاكرتي، أحداث الليلة الماضية وهذا الصباح، وبالطبع عدت أبعد من ذلك إلى زيارتي الأولى إلى هنا. أعرف أن المرأة في الملابس السوداء تطاردني، وربما يطاردني شخص آخر يقطن ذلك المنزل أيضًا. أعرف أن الأصوات التي سمعتها بالخارج في المستنقع، كانت أصواتًا شبحية، وبرغم أن ذلك كله مرعب وغير قابل للتفسير، فكرت في أنني أود الاقتراب منها من جديد، لو أمكن ذلك، لأنني أصبحت أكثر وأكثر إصرارًا على اكتشاف ما هي تلك الروح غير المستقرة التي تسببت في كل تلك الاضطرابات، ولماذا؟ لماذا تقوم بكل ذلك؟ لو أن بإمكاني اكتشاف الحقيقة، لربما أتمكن من إنهاء ذلك الوضع إلى الأبد.

ولكن، ما لم يكن بإمكاني احتماله أكثر، هو تلك الأجواء المحيطة بهذه الأحداث: أجواء الكراهية الطاغية والشر، أجواء شيطانية، وفي ذات الوقت، يملؤها الحزن المفجع والتوتر. تلك، تلك هي الأشياء التي تغزو روحي وتسيطر عليَّ، تلك هي ما لا أستطيع احتماله أكثر من ذلك. أخبرت السيد دايلي أنني سأكون ممتنًا وسعيدًا بالعودة معه، وأن أرتاح في منزله ولو حتى لوقت قصير، ولكني كنت قلقًا، لا أريد ترك هذا الغموض بلا تفسير، وكنت أعرف في ذات الوقت، أن على شخص ما أن ينهي العمل على أوراق السيدة درابلو ويحزم المهم منها، كان ذلك عملًا لا بُدَّ من القيام به في وقتٍ ما.

ذكرت ذلك إلى السيد دايلي.

«وماذا وجدت هنا يا سيد كيبس؟ خريطة كنز؟»

«لا، بل كمية هائلة من النفايات، ورق قديم غير مثير للاهتمام على الإطلاق، فضلًا عن أي قيمة. بصراحة، أشك في وجود أي شيء ذي قيمة، ولكن لا بُدَّ من القيام بالعمل، لا بُدَّ من القيام به في وقتٍ ما، نحن مضطرون إلى ذلك».

قمت وبدأت في التجول حول الغرفة، مجرِّبًا قدميَّ، فوجدتهما ثابتتين إلى حدٍّ ما.

«في الوقت الراهن، ليس لديَّ أي مشكلة في الاعتراف بأنني سأكون سعيدًا جدًّا بمغادرة هذا المكان وترك كل شيء، لا يوجد إلا مستند أو اثنين، أرغب في العودة إليهما مجددًا، كما يوجد حزمة رسائل قديمة وبعض المستندات الملحقة بها، كنت أقرأها ليلة أمس، سأجلبها معي».

وهكذا، بينما ذهب السيد دايلي إلى الأسفل لكي يغلق النوافذ والستائر، ويتأكد من أن نيران المدافئ كلها مطفأة، ذهبت أولًا إلى الغرفة التي كنت أعمل فيها، لكي أجمع أكوام الرسائل معًا، ثم ذهبت إلى الأعلى، لكي أجلب أشيائي القليلة. لم أعد خائفًا على الإطلاق، لأنني كنت على وشك مغادرة (إيل مارش)، ولأن حضور السيد صامويل دايلي الكبير طمأنني. أما إذا كنت سأعود إلى هنا مرةً أخرى أم لا، لم أكن أعرف تحديدًا، ولكني كنت متأكدًا من أنني لو عدت، لن أعود وحدي. شعرت بالهدوء، ولذلك، حين وصلت إلى أعلى السلم، واستدرت باتجاه الغرفة الصغيرة

التي كنت أشغلها، لم تعد أحداث الليلة الفائتة، سوى ماضٍ سحيق، لا يملك أي قدرة على إيذائي أكثر مما يستطيع كابوس سيء.

أعددت حقيبتي سريعًا، أغلقت النافذة وسحبت عليها الستائر. على الأرضية، تناثرت قطع المصباح المهشم، فجمعتها معًا في أحد الأركان بحافة حذائي. كان كل شيء هادئًا الآن، وكانت الرياح قد تراجعت منذ الفجر، ولكن ما زال بإمكاني، إذا أغمضت عيني، أن أسمع ضرباتها وطقطقتها في أنحاء المنزل القديم. وعلى الرغم من أن صوت الرياح ساهم في إثارة أعصابي، كان ما يزال بإمكاني إدراك أن تلك لم تكن سوى حوادث عرضية - العاصفة، صوت الارتجاج، الطقطقة، الظلام - تختلف عن الوقائع الشبحية الأخرى التي وقعت، والأجواء التي أحاطت بها. سيتغير الطقس، وتتوقف الرياح، وتشرق الشمس، وسيظل منزل (إيل مارش) هادئًا وساكنًا، ولكنه لن يكون أقل رعبًا، ستظل تسكنه الأشياء التي تسكنه، وستبقى مشاعر تلك الكائنات الرهيبة تزعج وتقلق أي شخص يأتي قريبًا من هنا، أنا متأكد من ذلك.

أنهيت إعداد حقيبتي، وغادرت الغرفة. ولكن حين وصلت إلى السلم، لم أتمكن من منع نفسي من إلقاء نظرة خاطفة على الممر المؤدي إلى غرفة الطفل.

كان الباب مفتوحًا بعض الشيء. وقفت، أشعر بالتوتر الذي يرقد أسفل السطح، يتصاعد داخلي، جاعلًا قلبي يدق سريعًا. سمعت خطوات السيد دايلي بالأسفل، وصوت حركة الكلبة وهي تتبعه، طمأنني وجودهما، واستجمعت شجاعتي، وسلكت الممر متجهًا إلى الباب نصف المفتوح. حين وصلت أمام الباب، ترددت. لقد كانت هنا. لقد رأيتها. أيٌّ من تكون، تلك البقعة هي مركز بحثها، مركز اهتمامها، أو فجيعتها - لا أستطيع التخمين بالضبط، كانت تلك الغرفة بالتحديد مركز المنزل المسكون.

لا يوجد أي صوت الآن. الكرسي الهزاز ساكن. دفعت الباب ببطء شديد، اتسع، أوسع، أوسع، بوصة، بعد بوصة، وخطوّت خطوات قليلة إلى الأمام، حتى أصبح بإمكاني رؤية الغرفة بكاملها.

كانت في حالة فوضى تامة، كما لو أن لصوصًا اقتحموها، وتركوها في حالة دمار هائل وغير منطقي، الملابس كلها مبعثرة أو في أكوام، على الأرضية، أما السرير، فما يزال مرتبًا بعناية. باب الدولاب مفتوح، وأدراج الصندوق الخشبي كذلك، والملابس معلقة على حوافها، مثل دماء تسيل من جسد جريح. الجنود الحديدية مبعثرة مثل قطع شطرنج مبعثرة، الحيوانات الخشبية متناثرة على الرف حول السفينة، الكتب ملقاة، وقد تمزقت أغلفتها، قطع الألعاب والأحاجي مكوَّمة معًا في منتصف الأرضية. الألعاب الأضعف ممزقة، بلا ملابس، ومصارع السامبو المصنوع من القصدير مهشم، كما لو أن مطرقة دمرته. الطاولة الصغيرة بجوار السرير ودولاب الأكواب على جانبيهما. الكرسي الهزاز قد أصبح في منتصف الغرفة، يتصدر، بظهره العالي المنتصف، مثل طائر يحوم فوق الحطام.

عبرت الغرفة باتجاه النافذة، ربما تمكن الشخص الذي تسبب في هذه الفوضى من الدخول خلالها، ولكنها كانت مغلقة بإحكام، صدئة، والألواح الخشبية في مكانها ثابتة. لم يدخل أحدٌ إلى هنا.

بينما أصعد مضطربًا إلى عربة السيد دايلي التي كانت تنتظر أمام المدخل، تعثرت، فمدَّ السيد دايلي ذراعه كي يمسك بي، ويساعدني حتى أتمكن من استعادة توازني، ورأيته ينظر إلى وجهي بحدة، وأدرك على الفور من خلال مظهري، أنني قد تعرضت لصدمة جديدة. لم يقل شيئًا، بل اكتفى بوضع غطاء على ساقي، ووضع سبايدر على ركبيّ، كي يُدفِئ ويطمئن أحدنا الآخر، وانطلق بالعربة عائدًا.

تركنا الحصى وراءنا وانطلقنا على العشب الجاف. وصلنا إلى مسار (السبعة أرواح) وبدأنا نقطعه. كان المد ينحسر تدريجيًّا، والسماء رمادية متجانسة مثل اللؤلؤ، والهواء رطبًا وباردًا، ولكن ساكن تمامًا بعد العاصفة. امتدت المستنقعات ساكنة، ضبابية، مخيفة، من حولنا، وأمامنا امتدت الحقول كئيبة، تنضح بالماء، بلا أي لون، بلا أوراق نباتات، بلا مرتفعات أو منخفضات. تقدمت العربة بثبات وهدوء، بينما يدندن السيد دايلي بصوت منخفض، بلا نغمة. جلست في حالة نعاس، متخدر المشاعر، غير واعٍ بأي شيءٍ من حولي ما عدا حركة العربة وظلمة الهواء.

ولكن حين بلغنا الطريق وتركنا المستنقعات والخليج وراءنا، نظرت إلى الوراء فوق كتفي، يقف منزل (إيل مارش) رماديًا وغائمًا، مثل صخرة شاخصة، نوافذه فارغة ومغلقة، ولم يكن هناك أي علامة على وجود أحدٍ أو ظِلٍّ، لا كائنات حية أو ميتة. فكرت في أنه لم يرنا أحدٌ نغادر. بدأت حوافر الحصان تدق بنشاط على الطريق الإسفلتي الضيق بين المصرف وسياج البرقوق الشائك. أدرت عيني بعيدًا عن هذا المكان اللعين، ودعوت بإخلاص شديد، أن تكون تلك هي المرة الأخيرة التي تقع فيها عيني عليه.

منذ اللحظة التي تسلقت فيها العربة، عاملني السيد صامويل دايلي بلطف وعناية واهتمام، كما لو كان يتعامل مع مريض، وتضاعَف مجهوده لكي يجعلني أشعر بالراحة والاطمئنان حين وصلنا إلى منزله. جهز السيد دايلي إحدى الغرف من أجلي، غرفة كبيرة هادئة، بها شُرفة صغيرة تُطِلُّ على الحديقة والحقول الشاسعة وراءها. كما أرسل أحد الخدم فورًا إلى (جيفورد آرمز) لكي يجلب ما تبقى من أشيائي هناك. وبعد أن قدَّم لي إفطارًا خفيفًا، تركني وحدي كي أنام لبقية الصباح. غُسلت سبايدر ونُظفت، ثم جيء بها إليَّ: «بما أنك قد اعتدت على وجودها»، فتمددت برضا بجوار الكرسي، كما لو أن تجربتها السيئة هذا الصباح لم تحدث قَطّ.

استرحت في السرير، ولكني لم أتمكن من النوم، فقد كان عقلي ما يزال في حالة ارتباك وحمى، وأعصابي كلها على وشْكِ الانهيار. شعرت بامتنان كبير للسلام والسكينة التي أحاطت بي، وبامتنان أكبر لمعرفتي الأكيدة أن برغم وجودي وحدي الآن في الغرفة، إلا أن هناك بشرًا في المنزل بالأسفل، وفي الأنحاء المجاورة، بشر كثيرون، يجيئون ويذهبون في شؤون أيامهم العادية، كان ذلك هو الاطمئنان الذي أردته بشدة، ما زال العالم يتحرك في طريقه الطبيعي المحدد.

حاولت جاهدًا ألا أترك عقلي يفكر كثيرًا فيما حدث لي، فشغلت وقتي بكتابة رسالة مختصرة إلى السيد بنتلي، وأخرى أكثر استفاضة إلى ستلا، إلا أنني لم أذكر إلى أيٍّ منهما تفاصيل ما حدث، ولم أخبرهما بحجم توتري.

بعد ذلك، ذهبت إلى الخارج، وتجولت حول الحقل الكبير، ولكن الهواء كان باردًا وقاسيًا، فعدت سريعًا إلى غرفتي. لم يكن ثمة أي إشارة على وجود صامويل دايلي. جلست في الكرسي غافيًا لساعة أو أكثر، وبرغم أن جسدي انتفض مرة أو مرتين في فزعٍ مفاجئ، إلا أنني تمكنت بعد وقتٍ قصيرٍ، من الاسترخاء، وهكذا أصبحت أكثر انتعاشًا مما كنت أظن ممكنًا في تلك الظروف.

كانت هناك دقة على الباب، عند الساعة الواحدة، ودخلت خادمة لتسألني ما إذا كنت أرغب في تناوُل الغداء هنا، أو أود الذهاب إلى الأسفل، إلى غرفة الطعام.

«أخبري السيدة دايلي بأنني سوف أنضم إليهما، شكرًا لكِ».

اغتسلت ورتبت ملابسي، ثم ناديت على الكلبة، ونزلت إلى الأسفل.

اعتنى بي السيد والسيدة دايلي بلطفٍ شديدٍ، وأصرا على أن أبقى معهما ليوم أو يومين، قبل أن أعود إلى لندن. بالفعل كنت قد قررت أن أعود: لم تكن هناك قوة على الأرض بإمكانها دفعي إلى قضاء ساعة واحدة أخرى في (إيل مارش)، لقد كنت جريئًا وعازمًا بأقصى الدرجات الممكنة، ولكني انهزمت، ولم أكن أخشى الاعتراف بذلك، ولم أشعر بأي عار. يمكن اتهام أي شخص بالجبن حين يهرب من كل أنواع المخاطر الجسدية، ولكن حين تكون المخاطر غير طبيعية، غير ملموسة، لا يمكن تفسيرها، وتهدد ليس فقط سلامته وصحته، بل عقله، وروحه، في تلك الحالة، لا يعود الهروب علامةً على الضعف، بل هو الاختيار الأكثر رشدًا.

ومع ذلك، كنت ما أزال غاضبًا، ليس من نفسي، بل من ذلك الشيء الذي يسكن (إيل مارش)، كنت غاضبًا من أفعال ذلك الكائن المختل الوحشية وغير المبررة، وغاضبًا لأنها منعتني، كما أنها من المؤكد ستمنع أي شخص آخر، من القيام بالعمل. وربما كنت غاضبًا أيضًا من هؤلاء الناس - السيد جيروم، كيكويك، مالك النُزل، صامويل دايلي، لأن الأدلة تشير إلى أنهم على حقٍّ بشأن المنزل. كنت صغير السن ومتكبرًا كفاية لكي أشعر بالانكسار. لقد تعلمت درسًا قاسيًا.

في ذلك العصر، بعد وجبة الغداء الممتازة، تُركت أقضي الوقت كيفما أشاء، فقد ذهب السيد دايلي بعد الوجبة مباشرةً لزيارة إحدى مزارعه النائية. أخرجت حزمة أوراق السيدة درابلو التي كنت قد جلبتها معي، فقد كنت ما أزال أشعر بالفضول تجاه القصة التي بدأت في جمع خيوطها من خلال قراءتي للرسائل الأولية، وفكرت في أنها قد تكون تسلية جيدة لي. كانت الصعوبة بالطبع، أنني لا أعرف مَن تكون المرأة الشابة - 'ج' أو جينيت التي كتبت تلك الرسائل - هل كانت إحدى قريبات السيدة درابلو، أو قريبات زوجها، أو مجرد صديقة؟ ولكن بدا على الأرجح أنها إحدى أفراد العائلة، كما أوضحَتْ الرسائل والمستندات القانونية، وأنها قد عرضت طفلها، أو أجبرت بالأحرى على عرض طفلها غير الشرعي للتبني.

شعرت بالحزن من أجل 'ج' بينما أقرأ رسائلها المؤثرة القصيرة، مرارًا وتكرارًا. حبها الشغوف لطفلها، وعزلتها في ذلك الحب، وغضبها، والطريقة التي حاربت بها، بقوة في البداية، ثم استسلامها اليائس للطريق المقترح عليها، ملأتني كل تلك الأشياء بالحزن والتعاطف. من المؤكد أنها لو كانت شابة من طبقة الخدم، تعيش في مجتمع منغلق مثل ذلك منذ ستين عامًا أو أكثر، ربما لكان حظها أفضل من الشابة، ابنة الطبقة النبيلة، التي رُفضَت ببرودٍ، وتم تجاهل مشاعرها بالكامل. ولكني كنت أعرف أن الخادمات في العصر الفيكتوري، كن يجبرن على قتل أو ترك أطفالهن غير الشرعيين، على الأقل كانت جينيت تعرف أن طفلها على قيد الحياة، وأنه حصل على منزلٍ جيدٍ.

فتحت بعد ذلك، المستندات الأخرى الملحقة بتلك الرسائل. كانوا ثلاث شهادات وفاة. الأولى شهادة وفاة الطفل، ناثانيال درابلو، في سن السادسة، وسبب الوفاة: الغرق. بعد ذلك، شهادة مماثلة تحمل نفس التاريخ، تنص على أن روز جود قد ماتت غرقًا أيضًا.

شعرت بإحساس بارد رهيب، شعور بالغثيان بدأ في المنطقة أعلى معدتي، ثم ارتفع إلى صدري ثم حلقي، وأصبحت متيقنًا أنني سوف أتقيأ أو أختنق. ولكني لم أفعل، بل قمت وتجولت حول الغرفة متوترًا وغاضبًا، قابضًا على الورقتين في كفي.

بعد وهلة، أجبرت نفسي على النظر في الشهادة الأخيرة، كانت أيضًا شهادة وفاة، ولكن تاريخها يقع بعد اثني عشر عامًا من تاريخ الشهادتين الأخريَيْن.

كانت شهادة وفاة جينيت إليزا هامفري، عزباء، في السادسة والثلاثين من عمرها، وكان سبب الوفاة المسجَّل ببساطة هو «السكتة القلبية».

جلست متثاقلًا في الكرسي، ولكني كنت غاضبًا بشدة، لم أقدر على البقاء هكذا لمدة طويلة، فناديت في النهاية على سبايدر، وخرجت مرةً أخرى إلى عصر ذلك النهار من شهر نوفمبر، كان الغروب قد بدأ مبكرًا بالفعل. انطلقت سائرًا، وابتعدت عن منزل السيد دايلي وحدائقه، مررت بالحظائر والإسطبلات والأعشاش، ثم عبرت فوق بعض القش. شعرت بالتحسن أثناء تلك الجولة، لا شيء حولي سوى الريف، الحقول المحروثة المخططة، وأسيجة النباتات القصيرة، وبعض أشجار الدردار، هنا وهناك، تمتلئ أغصانها العارية بأعشاش الغربان التي انطلقت بأجسادها القبيحة السوداء، تحلِّق بأجنحتها الخشنة من حين لآخر، وتحوم في السماء الرصاصية وتنعق. كانت هناك رياح باردة تهب عبر الحقول، وتدفع أمامها رذاذ المطر بقوة. بدت سبايدر سعيدة بوجودها في الخارج.

كانت أفكاري كلها أثناء الجولة، مركزة على الأوراق التي قرأتها قبل قليل، كانت القصة التي روتها تلك الأوراق، قد أصبحت واضحة وكاملة، لقد اكتشفت بالمصادفة - إلى حدٍّ كبيرٍ - هوية المرأة في الملابس السوداء، أو على الأقل أصبح لدي فكرة عنها، وكذلك وجدت إجاباتٍ للكثير من الأسئلة التي دارت بذهني، ولكن على الرغم من أنني الآن أعرف أكثر، لم أكن راضيًا عن ذلك الاكتشاف، بل منزعجًا ومتوترًا - وخائفًا أيضًا. كنت أعرف، وفي نفس الوقت لا أعرف، كنت

مرتعدًا، ولم يكن هناك أي تفسير حقيقي لأي شيءٍ. كيف يمكن لمثل تلك الأشياء أن توجد؟ لقد قلت من قبل إنني لم أكن أؤمن بوجود الأشباح، مثلي في ذلك مثل أي شاب عاقل، متعلم، ذكي، يميل إلى الحقائق. ولكني رأيت أشباحًا. ذلك الحدث، الحدث المروِّع والمأساوي الذي وقعَ قبل سنوات وسنوات، وانتهى، يحدث بطريقة ما من جديد، ويتكرر، ويتكرر، في بُعد آخر غير بُعدنا العادي الراهن. عربة يجرها حصان، تحمل طفلًا عمره ست سنوات، يدعى ناثانيال، ابن السيد والسيدة درابلو بالتبني، تحمله مربيته، انحرفت العربة بطريقة ما، واتخذت مسارًا خاطئًا في بحر الضباب، وانجرفت بعيدًا عن أمان المسار، باتجاه المستنقع، حيث سحبها الوحل وابتلعها الطين ومياه الخليج المرتفعة. هكذا، غرقت المربية والطفل، وأيضًا العربة وحصانها وسائقها على الأرجح. والآن، هناك في نفس المستنقع، تتكرر الواقعة، ظلالها وأشباحها، ذكراها، تحدث مرة بعد مرة - لا أعرف كم مرة! ولكن لا يمكن رؤيتها الآن، بل سماعها فقط.

كان الشيء الآخر الوحيد الذي أعرفه، هو أن والدة الطفل، جينيت هامفري، قد ماتت بسبب مرض الهزال المزمن، وأن كليهما؛ الطفل ووالدته، مدفونان في نفس المقبرة المهجورة المتداعية خلف منزل (إيل مارش)، وأن غرفة الطفل في المنزل تُركَت كما هي منذ رحيله عنها، سريره وملابسه وألعابه، كل شيء كما هو، وأن شبح والدته يسكن المكان. بالإضافة إلى ذلك، فإن حزن المرأة القوي وكآبتها، وكراهيتها المكبوتة ورغبتها في الانتقام، يملؤون الهواء هناك.

وكان ذلك هو ما أزعجني بشدة؛ قوة هذه المشاعر، فقد كنت مقتنعًا أن تلك المشاعر تمتلك القدرة على الإيذاء، ولكن إيذاء مَن؟ ألم يمت كل الذين كانت لهم علاقة بتلك القصة الحزينة؟ على الأرجح، كانت السيدة درابلو آخر من تبقى منهم.

في نهاية المطاف، بدأتُ أشعر بالإرهاق، فعُدت أدراجي، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من إيجاد حلٍّ للأمر - ربما لأن الأمر غير مفهوم - لم أستطع تجاهله، وإبعاده عن تفكيري، بل ظلَّ يشغلني طوال الطريق إلى المنزل، وظللت أفكر فيه حين جلست في غرفتي الهادئة، أنظر خارج النافذة إلى ظلام الليل.

بحلول الوقت الذي سمعت فيه جرس العشاء، كنت قد أجهدت نفسي بالتفكير حتى شعرت بحمى الإثارة تملأني، فقررت أن أقص الأمر كله على السيد صامويل دايلي، وأطلب منه إخباري بكل ما يعرفه أو سمعه عن الأمر.

كان المشهد كما في المرة السابقة؛ غرفة مكتب السيد دايلي بعد العشاء، يجلس كلانا في الكراسي الوثيرة المريحة، الدورق والكؤوس بيننا على الطاولة الصغيرة. كنت أشعر بتحسُّن بعد تناول هذا العشاء الجيد.

وصلت للتو إلى نهاية قصتي. كان السيد دايلي قد جلس، يستمع بلا مقاطعة، وجهه ينظر بعيدًا عني، وأنا أستعيد بهدوء مثير للدهشة، تلك الأحداث التي وقعت أثناء إقامتي القصيرة في (إيل مارش)، وصولًا إلى الوقت الذي وجدني فيه مغشيًا عليَّ بالخارج في الصباح الباكر. كنت قد أخبرته أيضًا باستنتاجاتي التي وصلت إليها بعد فحص حزمة الرسائل وشهادات الوفاة.

لم يتكلم لبضع دقائق. تتحرك مؤشرات الساعة ويصدر صوت حركتها المنتظمة. وتشتعل النيران بانتظام في المدفأة. وتستلقي الكلبة سبايدر أمامنا على السجادة. كانت روايتي للقصة أشبه بالتطهر، والآن شعرت برأسي خفيفًا على نحوٍ مثيرٍ للفضول، وبجسدي في حالة شلل مثل تلك الحالات التي تتبع الحمى أو الفزع. ولكني فكرت أنه ابتداءً من تلك اللحظة، سوف تتحسن حالتي، لأنني لن أستطيع إلا التحرك خطوة خطوة، مبتعدًا عن تلك الأحداث المريعة، ولكنها خطوات أكيدة مع مرور الزمن.

قال أخيرًا: «حسنٌ، لقد وقعت لك الكثير من الأمور منذ التقيتك تلك الليلة على متن القطار».

«أشعر وكأن مئة عام قد مرت منذ تلك الليلة، أشعر وكأني شخصٌ آخر».

«لقد خضت تجربة مريرة».

«حسنًا، ولكني الآن وصلت إلى الهدوء الذي يتبع العاصفة، لا بُدَّ للأمر من نهاية».

رأيت في وجهه انزعاجًا.

قلت بشجاعة: «لا تقل إنك تظن أن هناك المزيد؟» لم أكن أنوي العودة إلى هناك أبدًا، لا شيء يمكنه دفعي إلى التراجع عن ذلك.

«لا».

«إذًا، كل شيء على ما يرام».

لم يجب، بل مال إلى الأمام، وصب لنفسه كأسًا آخر من الويسكي.

قلت: «إلا أنني أتساءل عما سيحدث للمنزل. من المؤكد أن لا أحد من السكان المحليين سيريد العيش هناك، ولا يمكنني أن أتخيل أن شخصًا من خارج المنطقة سيبقى هناك فور أن يسمع بتلك الحكايات - هذا لو لم يسمع عن تلك الحكايات قبل حتى أن يجيء إلى هنا. بالإضافة إلى ذلك، فالمنطقة غير ملائمة، مَن قد يريد مكانًا كهذا؟»

هز صامويل دايلي رأسه.

بعد لحظات جلسنا فيها صامتين، تشغل كلانا أفكاره، سألته: «هل تظن أن المرأة العجوز المسكينة كان يطاردها شبح أختها ليل نهار، وأنها احتملت تلك الأصوات المريعة هناك؟» - كان السيد دايلي قد أخبرني أن المرأتين في الواقع أختان - «لو أن الأمر كان كذلك، كيف تمكنت من احتماله دون أن يصيبها الجنون؟»

«لعلها لم تحتمل».

«لعلها».

كنت قد بدأت أدرك أنه ما زال يخبِّئ عني شيئًا ما، معلومة أو تفسير حول منزل (إيل مارش)، وعائلة السيدة درابلو، ولأنني أدركت ذلك، لم أتمكن من الاسترخاء،

أو الشعور بالسلام في عقلي، لا بُدّ أن أكتشف كل ما يمكنني معرفته، فقررت أن أحثه بقوة على إخباري.

«هل هناك شيء ما زلتُ لا أعرفه؟ هل لو كنت قد بقيت هناك لمدة أطول، كنت سألقى فظائع أخرى؟»

«لا يمكنني التخمين بذلك».

«ولكن ما يزال بإمكانك إخباري بالمزيد».

تنهد، وتحرك في كرسيه بعدم ارتياح، محاولًا تجنب عيني، ونظر باتجاه المدفأة، ثم مدَّ ساقه وداعب الكلبة بمقدمة حذائه.

«هيَّا، نحن بعيدون جدًّا عن المنزل، وأعصابي في حالة جيدة مرةً أخرى، لا بُدَّ أن أعرف، لا يمكنها أن تؤذيني الآن».

قال: «ليس أنت، لا، ربما ليس أنت».

«بالله عليك، ما الذي تخبِّئه عني، يا رجل؟ ما الذي يخيفك في إخباري؟»

قال: «سترحل، يا آرثر، مِن هنا غدًا أو بعد غدٍ، وإذا حالفكَ الحظ، لن تسمع مجددًا أو ترى أو تعرف أي شيء عن ذلك المكان الملعون، أما نحن، فسنبقى هنا، ولا مفر لنا من العيش مع ذلك كله».

«مع ماذا؟ قصص - إشاعات؟ مع رؤية المرأة في الملابس السوداء من حينٍ لآخر؟ مع ماذا؟»

«مع أي شيء سيحدث بعد ذلك، في أي وقتٍ. لقد تعايشت (كرثين جيفورد) مع ذلك لأربعين عامًا. لقد غيرت تلك الأحداث الناس هنا، إنهم لا يتحدثون عنها، لقد رأيت ذلك بنفسك. إن أكثر الذين عانوا بسبب ذلك المكان - جيروم وكيكويك، يتحدثان عنه أقل من أي شخصٍ آخر هنا».

شعرت بدقات قلبي تتزايد، ورفعت يدي إلى ياقة قميصي لكي أرخيها قليلًا. أبعدت الكرسي قليلًا عن نار المدفأة. الآن، وقد حلت اللحظة، لم أعد أعرف إذا كنت أريد حقًّا الاستماع إلى ما سيقوله دايلي أم لا.

«أعطت جينيت هامفري طفلها، الولد، إلى أختها آليس درابلو وزوج أختها، لم تكن تمتلك اختيارًا آخر. في البداية، كانت تعيش بعيدًا - على بُعد مئات الأميال. وكبر الطفل كأحد أفراد عائلة درابلو، ولم تكن هناك أي نية لإخباره عن والدته، ولكن في النهاية، تكاثر ألم الفراق عليها بدلًا من أن يتلاشى، فعادت إلى (كرثين). لم يرحب بها أحد في منزل والديها، والرجل - والد الطفل - كان قد سافر إلى خارج البلاد بشكل نهائي. استأجرت غرفة في القرية. لم يكن لديها أي مال، فعملت في خياطة الملابس، وعملت كرفيقة لإحدى السيدات. في البداية، لم تتركها آليس درابلو ترى الطفل نهائيًا، ولكن جينيت كانت في حالة جزع شديد، حتى إنها هددت بارتكاب أعمال عنف، فوافقت أختها في النهاية. تمكنت جينيت من زيارة طفلها في مناسبات

محدودة جدًّا، ولكن لم يكن مسموحًا لها بالانفراد بالطفل أو إخباره بمن تكون، أو بأن هناك أيَّ علاقة تجمعهما. لم يتوقع أحدٌ أن الطفل سيكبر ليصبح شبيهًا لها إلى ذلك الحد، ولا أن الألفة الطبيعية بينهما ستنمو. أصبح أكثر وأكثر ارتباطًا بها، تلك المرأة التي كانت في نهاية الأمر والدته، وتزايَد حبه لها أكثر وأكثر، وكلما ازدادت علاقتهما ازدهارًا، ازداد جفاؤه تجاه آليس درابلو. خططت جينيت لأخذ الطفل، هذا ما أعرفه بالفعل. ولكن قبل أن تتمكن من أخذه، وقعت حادثة، تمامًا كما سمعت. الولد... المربية، والعربة، وسائقها، كيكويك...»

«كيكويك؟»

«ليس كيكويك الذي قابلته، بل والده. وكان هناك أيضًا كلب الطفل الصغير. إنه مكان مشؤوم، كما اكتشفت بنفسك ودفعت ثمن هذا الاكتشاف. يرتفع البحر فيغمر المستنقعات فجأة، ويختفي الطين».

«إذًا، غرقوا جميعًا».

«وجينيت رأت كل شيء. كانت في المنزل، تنظر من نافذة علوية، في انتظار عودتهم».

سحبت شهيقًا في ذعر.

«استخرجوا الجثث، ولكن تركوا العربة، لقد سحبها الطين بقوة ولم يتمكنوا من استخراجها. منذ ذلك اليوم، بدأت جينيت هامفري تُصاب بالجنون».

«هل هذا أمر مفاجئ؟»

«لا. أصابها الحزن والغضب بالجنون، وامتلأت برغبة في الانتقام. كانت تلوم أختها التي كانت قد سمحت لهم بالخروج في ذلك اليوم، ولكن لم يكن ما حدث مسؤولية أحد، فالضباب يأتي دون إنذار».

«نعم، يأتي فجأة حتى في الأيام الصافية».

«أصيبت بعد ذلك بمرض، جعلها تفقد وزنها تمامًا، ربما بسبب فقدانها لطفلها أو بسبب جنونها، انكمش جسدُها، حتى صارت عظامًا، وجف اللون من وجهها، حتى صارت تشبه هيكلًا عظميًا - طيف حي. حين كانت تسير في الشوارع، كان الناس يبتعدون عنها، وكان الأطفال يصابون بالذعر. ماتت في النهاية. ماتت مملوءةً بالكراهية والبؤس. وبمجرد موتها، ظهر الشبح، وظلَّ يظهر منذ تلك اللحظة».

«ماذا؟ طوال الوقت؟ منذ موتها؟»

«لا، من حينٍ إلى آخر. صارت تظهر أقل في السنوات الأخيرة، ولكن ما زالت تظهر، وما زالت الأصوات تُسمع من حينٍ لآخر في المستنقعات».

«وعلى الأرجح سمعت السيدة درابلو العجوز تلك الأصوات؟»

«لا أحد يعرف».

«حسنًا، لقد ماتت السيدة درابلو، ولن يعرف أحد الحقيقة».

ولكن، لم يكن السيد دايلي قد أنهى حديثه، لقد كان على وشك الوصول إلى قمة القصة.

قال بصوت منخفض: «ولكن، أينما ظهرت، في المقبرة أو في المستنقع أو في شوارع المدينة، ومهما كانت مدة ظهورها، ومهما كان من رآها، لم يكن هناك سوى نتيجة واحدة».

همست: «وهي؟»

«بطريقة عنيفة وشنيعة، يموت طفل».

«ماذا؟... تعني في حادثة؟»

«بشكل عام في حادثة، نعم، ولكن في حالة أو حالتين، بعد مرض يصيب الطفل لأيام أو ليلة أو حتى أقل من ذلك».

«هل تعني أي طفل؟ أي طفل في المدينة؟»

«أي طفل. طفل جيروم مثلًا».

ظهر في مخيلتي فجأة صفٌّ من الوجوه الصغيرة الحزينة، وأيادٍ تمسك بالقضبان الحديدية التي تحيط بفناء المدرسة يوم جنازة السيدة درابلو.

«ولكن بالتأكيد... حسنٌ... يموت الأطفال أحيانًا».

«نعم، يموتون».

«وهل هناك ما هو أكثر من مجرد مصادفة تربط بين تلك الوفيات وظهور تلك المرأة؟»

«من الممكن أن يكون من الصعب عليك تصديق ذلك، من الممكن أن تشك في الأمر».

«بالفعل، أنا...»

«أما نحن، فنعرف يقينًا».

بعد لحظات قليلة، نظرت في وجهه المتجمد الحازم، وقلت: «أنا لا أشك في الأمر يا سيد دايلي».

ثم، لوقت طويل جدًّا، لم يقل أحدنا شيئًا آخر.

أعرف أنني قد عانيت من صدمةٍ لا يُستهان بها هذا الصباح، ومررت بأيام وليالٍ عدة من الإثارة والضغط العصبي، بسبب الشبح الذي يسكن منزل (إيل مارش)، ولكني لم أكن أدرك بالكامل مدى عمق التأثير السلبي لتلك التجربة على صحتي الجسدية والعقلية.

ذهبت إلى السرير في تلك الليلة، مفترضًا أنها ليلتي الأخيرة تحت سقف السيد والسيدة دايلي. في الصباح، خططت أن أنطلق على الفور كي أستقل أول قطار متاح إلى لندن، وحين أخبرت السيد دايلي بقراري، لم يناقشني فيه.

كنت قد قضيت ليلة سيئة للغاية، استيقظت كل ساعة بسبب الكوابيس المزعجة، وتصبب العرق من جسدي كله بسبب القلق، وحين لم أكن نائمًا، كنت أتمدد في السرير شاعرًا بالتوتر في أطرافي، أصغي السمع، وأعيد ذكريات الأيام الماضية مرة تلو أخرى. سألت نفسي أسئلة بلا إجابات عن الحياة والموت والحد الفاصل بينهما، ودعوت بشكل مباشر وبسيط، دعوات حارة.

كنت قد كبرت مثل معظم الأطفال، على الإيمان بالله، في كنف الكنيسة المسيحية، وعلى الرغم من اقتناعي بأن تعاليم المسيحية هي على الأرجح أفضل إرشاد لحياة صالحة، إلا أنني وجدت الإله بعيدًا، وصلواتي لم تعد سوى مجرد واجبات رسمية. ولكن ليس الآن. الآن، دعوت من أعماق قلبي وبإيمان متجدد. الآن، أدرت أن هناك قوى للخير، وقوى أخرى للشر، يتصارعون معًا، وأن بإمكان البشر أن يصنفوا أنفسهم بالانتماء إلى أحد الجانبين.

تأخر حلول الصباح طويلًا، وحين حل أخيرًا، كان صباحًا رطبًا وغائمًا - نوفمبر المعتم شديد الرطوبة. نهضت، رأسي تؤلمني وعيني تحرقني وساقي ثقيلةً، ولكني تمكنت بطريقة ما من ارتداء ملابسي، وسحبت نَفْسي إلى الأسفل، إلى طاولة الإفطار. لم أكن أشعر بأية شهية للطعام، ولكني كنت عطشًا للغاية، فشربت فنجانًا بعد فنجان من الشاي. ألقى السيد والسيدة دايلي عليَّ نظراتٍ قلقة سريعة من حين إلى آخر، بينما أخبرهم عن ترتيبات السفر. فكرت أنني لن أشعر بأي تحسن مرةً أخرى حتى أجد نفسي جالسًا في القطار، أشاهد الريف ينزلق مبتعدًا عن نظري، أخبرتهما بذلك ولكني في نفس الوقت حاولت أن أعبر لهما عن امتناني العظيم لكليهما، فقد أنقذاني بكل تأكيد، أنقذا حياتي وقواي العقلية.

نهضت من الطاولة بعد ذلك، وبدأت في التحرك باتجاه غرفة الطعام، إلا أن الباب أخذ في التراجع كلما اقتربت منه، شعرت وكأني أصارع من أجل الوصول إليه، أقاوم خلال الضباب الذي بدأ يحيط بي، حتى لم أعد أستطيع التنفس، كأنني أدفع بحمل ثقيل بعيدًا كي أتمكن من أخذ أي خطوة إلى الأمام.

أمسك بي صامويل دايلي قبل أن أسقط، وأدركت بالكاد، أنه نصف يحملني ونصف يسحبني للمرة الثانية، وإن كانت تلك المرة في ظروف مختلفة جدًّا، أخذني تلك المرة إلى الأعلى، إلى غرفة نومي. هناك، ساعدني كي أخلع ملابسي، وتركني، رأسي تدق وعقلي مشوَّش، وهناك بقيت، يزورني من حين إلى آخر طبيب، بدت على ملامحه علامات القلق. بعد ذلك، انتهت أسوأ فترات الحمى والهذيان، وتركتني منهكًا وضعيفًا إلى أقصى حدٍّ. تمكنت من الجلوس على كرسي أخيرًا، في الغرفة أولًا، ثم بعد ذلك بالأسفل. كان السيد والسيدة دايلي تجسيدًا للطيبة والاهتمام نفسيهما. كان أسوأ ما في تلك الفترة على الإطلاق، ليس المرض الجسدي والإرهاق والآلام والحمى، بل الاضطراب العقلي الذي مررت به.

بدا وكأن المرأة في الملابس السوداء تطاردني، حتى هنا، تجلس على حافة السرير، تدفع بوجهها فجأة وتقترب من وجهي بينما أتمدد نائمًا، فأستيقظ باكيًا في هلع. امتلأت رأسي بأصداء صرخات الطفل وصهيل الحصان الغارق. لم أتمكن من التحرر من تلك الأصوات، وحين لم أكن أرى خيالات محمومة وكوابيس، كنت أتذكر كل كلمة في الرسائل وشهادات الوفاة، كما لو أنني أستطيع رؤية الصفحات أمام عيني.

ولكن بدأت أشعر بالتحسن أخيرًا، تلاشى الخوف، وتلاشت الخيالات، ووجدت نفسي مرةً أخرى. كنت مرهقًا، متعبًا، ولكن أفضل حالًا. لم يكن هناك أي شيء آخر بإمكان المرأة أت أن تفعله فيَّ، لقد احتملت ونجوت.

بعد اثني عشر يومًا، شعرت أنني قد تعافيت بالكامل، كان يومًا شتويًا مشمسًا، ولكن السماء كانت قد أثلجت لأول مرة هذا العام. كنت أجلس بقرب النافذة المفتوحة في غرفة استقبال الضيوف، تغطي ساقي بطانية، وأنظر إلى الأشجار العارية، بيضاء رمادية، متجمدة بسبب الصقيع، وخلفها السماء. كان ذلك بعد وجبة الغداء. من الممكن أن أنام قليلًا، أو لا، ولكن في الحالتين لن يزعجني أحدٌ. تمددت سبايدر برضا عند قدمي، كما كانت تفعل خلال الأيام والليالي الماضية أثناء مرضي. لقد أصبحت أكثر تعلقًا بتلك الكلبة الصغيرة، أكثر مما تخيلت أنه ممكن، أشعر أننا تشاركنا رباطًا، بسبب ما مررنا به سويًا خلال أوقاتنا العصيبة معًا.

جثم طائر أبو حناء على إناء فوق أحد الأسوار، رأسه مرفوع، وعيناه لامعتان، تأملته بسعادة بينما يقفز على ساق واحدة أو ساقين، ثم يتوقف مرةً أخرى ليسمع ويغني. فكرت أنني ما كنت سأركز في شيء عادي هكذا أبدًا قبل مجيئي إلى هنا، ولربما ما كنت سأطيق صبرًا حتى أقوم مبتعدًا لأشغل نفسي بعمل ما. الآن، أشعر بالتقدير تجاه وجود هذا الطائر، أستمتع ببساطة بمشاهدة حركته طوال الوقت الذي ظل فيه خارج نافذتي، تابعته بحدة لم أختبرها من قبل قَطّ.

سمعت أصواتًا بالخارج، صوت محرك سيارة، وأصوات أشخاص متناثرة أمام المنزل، ولكني لم ألقِ لها بالًا، بل ظللت منغمسًا في ملاحظتي للطائر. لم تكن تلك الأصوات تخصني في شيء.

سمعت وَقْع خطوات على الممر، ثم توقفت أمام باب غرفة استقبال الضيوف، وبعد تردُّد، انفتح الباب. ربما كان الوقت متأخرًا أكثر مما أظن، فجاء أحدهم يطمئن على حالي، ويسألني إذا كنت أريد فنجان شاي.

«آرثر؟»

استدرت متفاجئًا، ثم قفزت من الكرسي في ذهولٍ، وعدم تصديق، وسرور. ستلا، ستلا العزيزة. كانت تتقدم نحوي عبر الغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١٢)

امرأة في ثوبٍ أسود

في صباح اليوم التالي، غادرت المنزل. كانت سيارة السيد دايلي تأخذنا مباشرةً إلى محطة القطارات. كنت قد أغلقت حسابي في نُزل (جيفورد أرمز) عن طريق أحد الأشخاص ولم أذهب بنفسي إلى مدينة (كرثين جيفورد) مرةً أخرى، فقد بدا لي من الحكمة الاستماع إلى نصائح الطبيب، الذي كان قد حذرني بوضوح من بَذْلِ أي مجهود أو الذهاب إلى أي مكان، كي لا أهز توازني الذي ما يزال هشًا. في الحقيقة، لم أكن أريد العودة إلى المدينة، أو المخاطرة بإمكانية مقابلة السيد جيروم أو كيكويك، أو حتى أن ألقي بنظرة خاطفة على المستنقعات البعيدة في طريقي إلى هناك. كان كل ذلك قد أصبح من الماضي، كما لو أن الأمر برمته قد حدث لشخص آخر. كان الطبيب قد أخبرني أن أتجنب التفكير في الأمر، فقررت أن أحاول فعل ذلك بالفعل، ولم أرَ كيف يمكنني أن أخفق في ذلك طالما ستلا إلى جواري.

كان ندمي الوحيد حين غادرت المكان، هو شعور أصيل بالحزن على مفارقة السيد والسيدة دايلي، وحين تصافحنا، جعلته يعدني بأنه سيزورني أثناء رحلته التالية للندن - أخبرني أنه يزور لندن مرة أو مرتين على الأكثر في العام- فضلًا عن ذلك، كان تم حجز جرو صغير لنا فور أن تلد سبايدر. كنت أعرف أنني سأفتقد تلك الكلبة الصغيرة افتقادًا شديدًا.

ولكن، بقي سؤال واحد أخير، يجب أن أسأله، على الرغم من أنني وجدت صعوبة في فتح ذلك الموضوع.

وحين ابتعدت ستلا قليلًا، وانغمست في حوار مع السيدة دايلي، بعد أن تمكنت من إثارة فضولها بلطفها الطبيعي ودفئها، وأصبحت لا تستطيع سماعي: «لا بُدَّ أن أعرف».

نظر إليَّ صامويل ديلي بحدة.

أخذت نفسًا عميقًا، محاولًا تهدئة نفسي: «لقد أخبرتني في تلك الليلة، أن طفلًا، طفلًا من (كرثين جيفورد) لا بُدَّ أن يموت».

«نعم».

لم أتمكن من الاستمرار في الحديث، ولكن ملامح وجهي كانت كافية، لقد كانت رغبتي اليائسة في معرفة الحقيقة واضحة بجلاء، أعرف ذلك.

قال السيد دايلي مسرعًا: «لا شيء، لم يحدث شيء...»

كنت متأكدًا أنه على وشك أن يضيف: «بعد»، ولكنه توقف، فأضفتها أنا بدلًا عنه، ولكنه اكتفى بهز رأسه في صمت.

«يا الله، إنني أدعو ألا يحدث ذلك - أن تنكسر تلك السلسلة - أن تتلاشى قوتها - أن ترحل - وأن أكون أخر من رآها».

وضع كفه على ذراعي ليطمئنني: «نعم، نعم».

أردت أن تتحقق دعوتي أكثر من أي شيء آخر، فقد كان الوقت الذي مرَّ منذ رأيت المرأة في الملابس السوداء - شبح جينيت هامفري - لآخر مرة، طويلًا بما يكفي الآن، لكي يكون دليلًا إيجابيًّا على أن اللعنة قد انكسرت. لقد كانت امرأة مسكينة ومضطربة، ماتت بالفاجعة والاكتئاب، وملأتها الكراهية والرغبة في الانتقام، لقد كان حقدها مفهومًا، والشر الذي دفعها لأخذ أطفال النساء الأخريات لأنها فقدت طفلها، مفهومًا أيضًا، ولكن لا يمكن مسامحتها عليه.

لم يكن هناك ما يمكن القيام بها من أجل مساعدتها، ما عدا، ربما، الدعاء لروحها. إن السيدة درابلو التي كانت تلومها على موت طفلها، ماتت وترقد الآن في قبر، والمنزل فارغ أخيرًا، ربما ستتوقف عن مطاردته الآن، وستتوقف النتائج المروعة لتلك المطاردة من الحلول على رؤوس الأبرياء إلى الأبد.

كانت السيارة تنتظر عند المدخل. صافحت السيد والسيدة دايلي، واستندت إلى ذراع ستلا، أمسكت به بقوة، وصعدت إلى العربة، ومِلتُ مسترخيًا في مقعدها. وهكذا، بتنهيدة ارتياح - أقرب إلى شهقة - أخذت بعيدًا عن (كرثين جيفورد).

***

اقتربت قصتي على الانتهاء، لم يبقَ سوى شيءٍ أخير أحكيه، شيء بالكاد أستطيع دفع نفسي إلى الكتابة عنه. لقد جلست هناك إلى مكتبي، يومًا بعدَ يوم، ليلة بعد ليلة، أمامي ورقة فارغة، غير قادر على رفع القلم، أرتجف، وأبكي أيضًا. كنت أخرج في جولات حول البستان القديم، أتوغل في الحقول الواقعة خلف منزل (مونكس بيس)، لأميالٍ وأميالٍ، ولكني لم أكن أرى شيئًا من حولي، لم ألحظ الحيوانات أو الطيور، لم أستطع تحديد حالة الطقس حتى، وكنت أعود إلى المنزل في الكثير من المرات غارقًا في مياه المطر، فأثير قلقًا شديدًا في إزمي. لقد كان ذلك سببًا آخر للعذاب: لقد كانت تلاحظني، كانت حائرة مملوءة بالأسئلة التي لم تلقيها عليَّ أبدًا بسبب حساسيتها المفرطة. لقد كنت سبب القلق والاكتئاب الذي بدا على ملامحها، وشعرت باضطرابها بينما كنا نجلس سويًّا في الأمسيات المتأخرة. لم أستطع أن أخبرها بأي شيء، لم يكن لديها أدنى فكرة عما مررت به وأسبابه: ولن يكون لديها أدنى فكرى حتى تقرأ تلك المخطوطة، وفي ذلك الوقت، سأكون قد مت، وصرت بعيدًا عنها.

أما الآن على الأقل، فقد استجمعت شجاعتي بما يكفي. سأستخدم آخر ما تبقى من قوتي التي فقدت معظمها أثناء إعادة تذكر تلك المخاوف القديمة، لكي أكتب نهاية القصة.

***

عدت مع ستلا إلى لندن، وتزوجنا بعد ستة أسابيع. كانت خطتنا الأصلية هي أن ننتظر حتى الربيع التالي، ولكن ما مررت به غيرني تمامًا، فأصبح لديّ الآن إحساس متعجل بالزمن، شعور أكيد أننا لا يجب أن نؤجل، بل ننتهز فرصة السعادة والحظ الجيد، وأي فرصة أخرى على الفور والتمسك بها بقوة. لماذا ننتظر؟ لم يكن هناك أي سبب غير توفير المال اللازم لشراء مكان للعيش وتجهيزه، لا شيء آخر. وهكذا تزوجنا، بهدوء، بلا أي صخبٍ، وعشنا في غرفتي التي كنت أستأجرها، وأضفنا إليها غرفة أخرى، كانت مالكةُ العقار أكثر من سعيدة بتلك الإضافة. عشنا هناك حتى يحين الوقت الذي نتمكن فيه من شراء منزل صغير. كنا سعداء كأكثر ما يكون شاب وزوجته، راضيين بصحبة بعضنا البعض، لسنا أغنياء، ولكن لسنا فقراء أيضًا، مشغولون بأمور حياتنا ونتطلع إلى المستقبل. ظلَّ السيد بنتلي يزيد مع مرور الوقت، من مسؤولياتي، ويزيد معها راتبي بالتبعية. رجوته ألا يخبرني بأي تفاصيل عن منزل (إيل مارش) ومستندات السيدة درابلو، ففعل ما طلبته، وهكذا لم تُذكَر تلك الأسماء أمامي مرةً أخرى.

بعد مرور أكثر من سنة بقليل على زواجي من ستلا، أصبح لدينا طفل، ولد، أطلقنا عليه اسم جوزيف آرثر صامويل، وكان السيد صامويل دايلي والده الروحي. كان السيد دايلي الرابط الوحيد المتبقي مع ذلك المكان، ذلك الزمن. وعلى الرغم من أننا كنا نراه أحيانًا في لندن، إلا أنه لم يتحدث قَطّ عن الماضي. بالطبع، كنت ممتلئًا بالرضا والسعادة في حياتي، لدرجة أنني لم أفكر قَطّ في تلك الأحداث من الماضي، وتوقفت الكوابيس عن إزعاجي.

كنت في حالة من السلام والسعادة في عصر أحد أيام الأحد، في صيف العام التالي على ميلاد ابننا، ولم أكن قَطّ مستعدًا لما كان على وشك الحدوث.

كنا قد ذهبنا في ذلك اليوم إلى حديقة كبيرة، على بُعدِ حوالي عشرة أميال خارج لندن، كانت عبارة عن حديقة أحد قصور النبلاء، وكان يُسمح للعامة بدخولها في عطلات نهايات الأسبوع في فصل الصيف. كانت الأجواء احتفالية من حولنا، تطفو على سطح البركة قوارب صغيرة، كما يوجد مسرح تحتله فرقة موسيقية، تعزف ألحانًا مبهجة، وأكشاك آيس كريم وفاكهة. كانت العائلات تتجول في أشعة الشمس، والأطفال تلعب على العشب. سرت بجوار ستلا بسعادة، بينما ما زال جوزيف الصغير يتعثر في خطواته، ممسكًا بأيدينا بينما نشاهده بفخر هائل.

ثم لاحظَتْ ستلا أن أحد الأنشطة المتاحة للترفيه، كان حمارًا، وعربة يجرها حصان، يمكن ركوبهما وأخذ جولة عبر طريق تظلله أشجار الكستناء، فكرنا في أن أمر كهذا قد يعجب الطفل، فصحبناه باتجاه الحمار الهزيل، وشرعت في رفعه إلى السرج، ولكنه صرخ وسحبَ نفسه مبتعدًا على الفور، التصق بي بينما في ذات الوقت يشير إلى العربة التي يجرها حصان، بحماس شديد. أخذت ستلا جوزيف إلى العربة، حيث لم يكن فيها مكانًا إلا لشخصين، ووقفت أشاهدهما بينما يتأرجحون بسعادة على الطريق، بين الأشجار البديعة التي كانت تغطيها الأوراق بالكامل.

لبرهة من الزمن، اختفوا عن نظري، وراء انحناء في الطريق، وبدأت أنظر من حولي بفتور، متابعًا الأشخاص الآخرين الذين يستمتعون بالأمسية. ثم بعد ذلك، فجأة، رأيتها. كانت تقف على مسافة من الناس، بالقرب من جذع إحدى الأشجار.

نظرتُ مباشرةً إليها، ونظرت مباشرةً إليَّ. كانت هي، المرأة في الملابس السوداء، بوجهها المهترئ، شبح جينيت هامفري. لثانية، ظللت أحدق في تشكك وذهول، ثم في خوف بارد. أصابني الشلل، تصلبت في مكاني الذي وقفت فيه، واسودَّ العالم كله من حولي، واختفت نداءات وصيحات الأطفال المبتهجة. لم أستطع رفع عيني عنها، لم يكن هناك أيُّ تعبيرٍ على وجهها، ورغم ذلك، شعرت مرةً أخرى بتلك القوة المتجددة التي تنبعث منها، الضغينة والكراهية والحقد الحار، لقد اخترقوا جسدي.

في نفس اللحظة، رأيت العربة قادمة على الطريق، تغمرها أشعة الشمس التي سقطت على العشب، فشعرت بالارتياح الشديد، كانت ستلا تجلس فيها، تمسك بالطفل الذي كان يهتز وينادي ويشير إليَّ بذراعه الصغير. لقد عادا تقريبًا، لقد وصلا إليَّ تقريبًا، بإمكاني استعادتهما والذهاب من هنا، لا أريد البقاء هنا لثانية واحدة أخرى. استعددت. حين كانا يعبران أمام الشجرة التي وقفت بجوارها المرأة في الملابس السوداء، أبطأت العربة حركتها تمامًا، وعلى الفور تحركت المرأة سريعًا، تُصدر ملابسها حفيفًا، كما لو أنها أرادت أن تقطع طريق العربة. جزع الحصان بعنف، ومال قليلًا، وامتلأت عيناه بالرعب المفاجئ، ثم ركض، ركض عبر الفراغات بين الأشجار، يصهل خارجًا عن السيطرة. حلت لحظة من الارتباك المريع، وانطلق بعضُ الناس ركضًا وراء العربة، وبدأت النساء والأطفال بالصراخ. بدأت أركض بجنون، ثم سمعت، سمعت الصوت المقزز لطقطقة وارتطام بينما العربة تصطدم بجذع إحدى الأشجار الهائلة. ثم حلَّ الصمت - صمت مريع استمر لثوانٍ قليلة لا أكثر ولكنه بدا كأعوام طويلة. ركضت في الاتجاه الذي سقطت فيه العربة، ونظرت إلى الوراء فوق كتفي، كانت المرأة في الملابس السوداء قد اختفت.

رفعوا ستلا بلطف من العربة، جسدها مكسور، عنقها وساقيها، إلا أنها ما تزال واعية. كان الحصان مرتعدًا، لقد انقلبت العربة، فتشابك لجامه حولها، ولم يستطع التحرك، وظل على الأرض يصهل في رعب.

أما ابننا الطفل، فقد قُذف به من العربة، واصطدم بشجرة أخرى، وتكوم تحتها على العشب، ميتًا.

في تلك المرة، لم يكن هناك إغماء رحيم، أو فقدان للوعي، بل أُجبرت على العيش خلال التجربة كلها، كل دقيقة، وكل يوم بعد ذلك، لعشرة أشهر طويلة حتى توفيت ستلا أيضًا، توفيت متأثرةً بجراحها الرهيبة.

لقد رأيت شبح جينيت هامفري. لقد حصل الشبح على انتقامه.

ألم يطلبوا مني قصتي؟ ها أنا قد رويتها. وكفى!

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

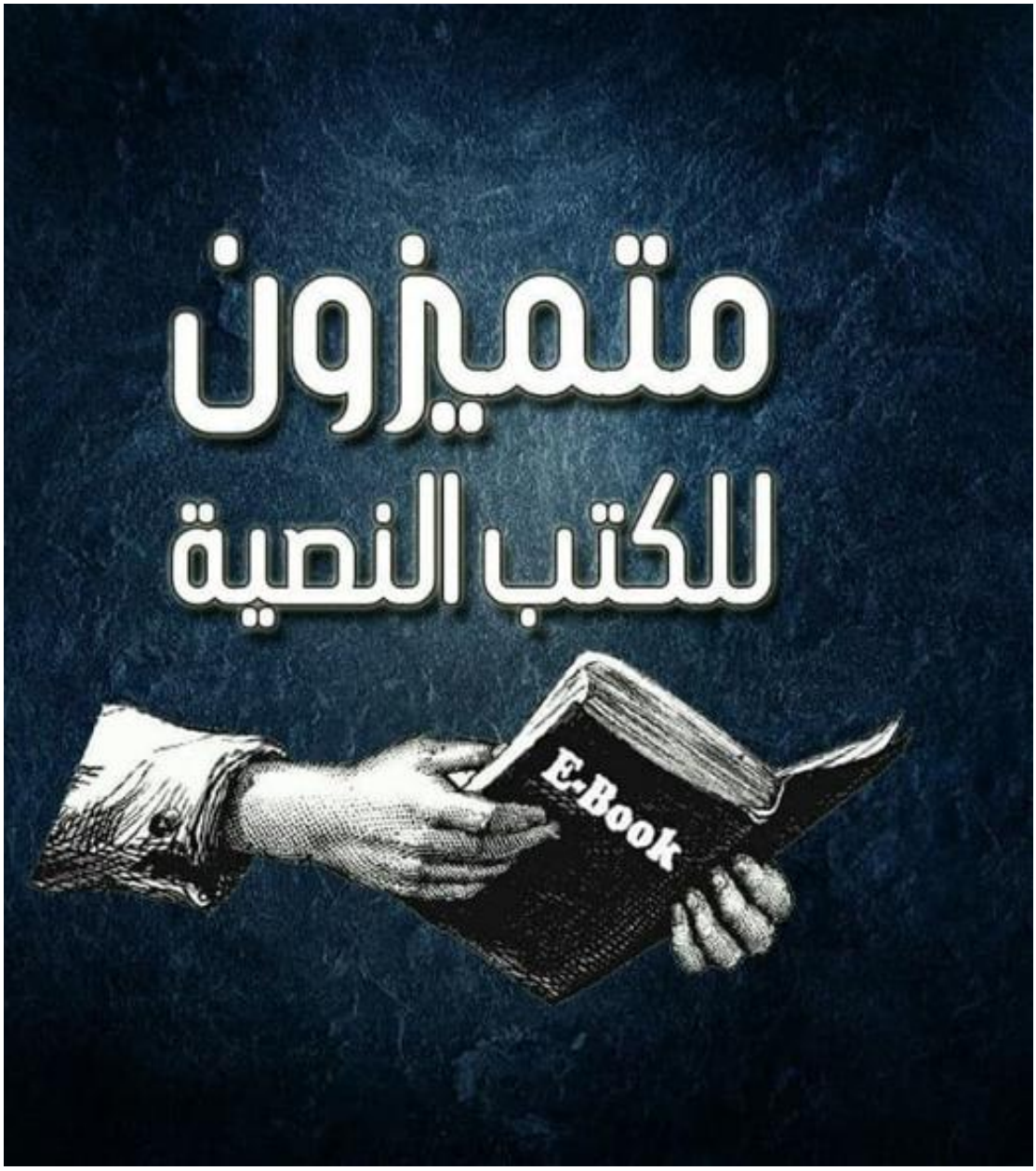

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

(١)

ليلة عيد الميلاد

(٢)

حدث استثنائي في لندن

(٣)

الرحلة إلى الشمال

(٤)

جنازة السيدة درابلو

(٥)

على الجهة الأخرى من السكك الحديدية

(٦)

صوت عربة وحصان

(٧)

السيد جيروم يرتعد

(٨)

سبايدر

(٩)

في غرفة الأطفال
(١٠)
سآتيك حين تطلق صفيرًا
(١١)
حزمة رسائل
(١٢)
امرأة في ثوبٍ أسود

Notes

[←1]

(1) إحدى شخصيات رواية «آمال عظيمة» للروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز.